منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf

سعيد خطيبي

أربعون عاماً في انتظار إيزابيل

مكتبة نوميديا 95
Telegram@ Numidia_Library

رواية

طبع في لبنان

أربعون عاماً في انتظار إيزابيل

رواية

سعيد خطيبي

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

الطبعة الأولى

1437 هـ - 2016 م

ردمك 978-614-02-1459-0

جميع الحقوق محفوظة

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
149 شارع حسيبة بن بوعلي
الجزائر العاصمة - الجزائر
هاتف/فاكس: 21676179 213+
e-mail: editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com
هاتف بيروت: 9613223227+

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأيّة وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أيّة وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات، واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي **الناشرين**

«أكتب حتى أظلّ على علاقة بكلّ ما خفي عني، ويخيّل إليّ أنني أدرك عن طريق الكتابة ما لا أعرفه، ما لا أكنهه، لذلك فالكتابة لديّ فعل معرفة. أوّلاً معرفة نفسي؛ فالكتابة تجعلني أكتشف نفسي؛ إذًا، بقدر ما أكتب أتعرّف إلى نفسي. وبعد الكتابة تكون معرفتي بنفسي قد ازدادت. كما تزداد أيضا معرفتي بالعالم، وذلك لأني كشفت عن اللامرئي فيما أدركت من المرئي، وذلك من خلال ما رأيته ولاحظته؛ وهكذا أكون بممارسة الكتابة قد ذهبت لأظفر بأشياء لم يظفر بها أحد».

فرنند واليت

إلى مارسيل بوا

الشّخصيات والأحداث الواردة في الرّواية من وحي الخيال، أيّ تشابه بينها وبين الواقع هو مجرد صدفة.

سأرسم لوحتين أخيرتين ليوميّات إيزابيل إيبرهارت، أردمهما في حديقة البيت، بين الكرمة وشجرة اللّيمون، وسأفعل الشّيء نفسه مع اللّوحات الثلاث عشرة الأخرى، وابتلع، كالعادة، كلمات سليمان الصّاخبة ولعناته. لن أردّ على لومه لي بأنها فعلة مُخلّة بأخلاق الفنّ، فقريبًا، سيُدرك أني عشت لأرسم وأدفن فنّي، وأن ثقتي كبيرة في أناس يأتون من بعدي، يحفرون عميقًا؛ بحثًا عن لوحاتي، ليقيّموها بأنفسهم ويحكموا عليها: قد يرجمونني بتهمة الاستشراق، يبصقون عليّ، ويتبوّلون على رسوماتي وعلى اسمي، ويتّهمونني بالعمالة والفجور، وربّما سيحبّونني، يحدّقون طويلاً في أعمالي، يُشيدون بها، ثم يُعلّقونها حيثما شاؤوا: على الحيطان العارية، أو في بيوت الله المعبّقة بالبخور، أو يعرضونها في السّوق الأسبوعية صباح كلّ جمعة، يأكلون من ثمنها القليل خبزًا حلالاً، وقد يجعلون من بيتي هذا، الواقع بين مسجد ومقبرة لشهداء الثّورة، متحفًا أو مزارًا أو قبّة للزّاهدين، ويكتبون سيرةً لي غير سيرتي الحقيقية، سيقولون - مثلاً - أنني كنت صديقًا للمناضلَين: محمد بوضياف وعبّان رمضان، وأنني ساعدتهما في الفرار من أعين الشّرطة وجنّبتهما السّجن، أكثر من مرّة، وأنني كنت نصيرًا للجزائر المُستقلة، عدوًا لفرنسا الكولونيالية ولجيشها الزّاحف، وربّما، سيحرّفون اسمي من «جوزيف» إلى «يوسف»، يُركّزون على فصل واحد من حياتي

المُتقلّبة والمتعثّرة، يوم اعتنقت الإسلام ونطقت بتلعثم الشّهادتين، في المسجد الكبير، ثم أدّيت مناسك الحجّ، رفقة سليمان، في رحلة بريّة مُضنيّة، من هذه المدينة الترابيّة البكماء إلى مكّة المُكرّمة، على متن سيارة رونو4.

في هذه الغرفة الإسمنتية الضّيقة، مهترئة الجدران، مشقّقة الزّوايا الأربع، المطليّة بالأصفر الباهت، المُكتظّة بأغراض قديمة وملابس بالية، ومقتنيات أربعة عقود من الخردوات والقطع الفنيّة، التي أكتب وأرسم فيها، علّقتُ بندقيّة صيد، من نوع «دارن»، ذات ماسورة طويلة، لم أستخدمها منذ أكثر من عشر سنوات، كنت أستعين بها في رحلات الصّيد في غابة «عين الغراب»، ركضًا خلف اليرابيع والأرانب البرّية، التي كنت أصطادها، ثم أتخلّص من جثثها، برعونة، في مياه الوادي، وإلى جانبها قبّعة زرقاء وسوداء، أحتفظ بها كذكرى، من الأشهر القليلة التي خدمت فيها دركيًا في فرنسا، إضافة إلى لوحة «نور العين وعبد الغرام» للفنّان إيتيان دينيه، أو «الرّومي» كما يسمّيه كبار السّن، فرغم أنه عاش هنا أكثر من أربعة عشر عامًا، تعلّم العربية وحفظ القرآن وخالط النّاس ووقف إلى جانبهم، في محنهم وفي مآتمهم، وأطعمهم بعضًا من رزقه، فقد ظلّوا ينظرون إليه «غريبًا»، أجنبيًا، بعين الرّيبة، يتوجّسون منه، مثلي أنا تمامًا: النّاس، هنا، لم يستوعبوا كيف لفرنسي ميسور الحال، يترك بيته المُريح في الضّاحية الباريسية، يتخلّى عن حياة التّرف المُباحة، ويزاحمهم مشقّة العيش في مدينة، تندر فيها المواد الغذائية الأساسيّة، وتصطف فيها، كل صباح، طوابير طويلة للحصول على لترَي زيت، أو كيلو غرام واحد من السُّكر.

ربما أخطأت يوم قرّرت المجيء إلى هذه المدينة المُعادية لنفسها!

لست مُستعدًا لإعادة سرد أربعين عامًا من الشّك والارتياب، ومن الأسئلة الوجوديّة، فقد كنت دائما أطرح على نفسي السّؤال نفسه: لماذا أنا هنا ولست هناك؟ وأتجنّب الإجابة عليه، مُواصلاً مناوراتي للحياة بفرحها وعبثيتها، مغمضًا عينيّ عن كلّ ما يمكن أن يشعرني بندم على القرار.

- وسّع بالك. هكذا، كان يُخاطبني سليمان.

لكن، الآن ضاق البال، و لم يبقَ من الوقت سوى ثلاثة عشر يومًا، قبل إجراء الدّور الثّاني من الانتخابات البرلمانية، التي تميل فيها الكفّة لحزب «العدالة»، الذي فاز في الدّور الأول، قبل ثمانية أيّام، بدعم من الآلاف من أبناء المدينة، ووعد قادته أنصارهم الكثر بحياة أفضل، مع تأميم ممتلكات الأجانب، وإعادة توزيعها عليهم بالعدل. هم - طبعاً - لن يستثنوا بيتي من قائمة التأميمات ولن يولوا اهتماماً للأربعين عاماً التي قضيتها بينهم. أربعون عاماً أفنتيها في الصّلاة في مساجدهم وفي اقتسام الخبز والماء والهواء معهم، لن يبالوا باللوحات التي رسمتها، ولا المعارض التي أقمتها أو شاركت فيها، وقريبًا، سأجد نفسي في العراء، مضطرًّا للعودة من حيث جئت.

سليمان، لا خيار له سوى الارتكان إلى صفّي وقبول القرار، والخضوع لمنطق الأسياد الجدد، سيجد نفسه - لا محالة - في الشّارع، فالفرنكات القليلة التي يتلقّاها منحة تَقاعُد، عن سنوات الخدمة في فرنسا، لا تكفي حتى لمصروف نصف شهر، ولا مُعيل له غيري.

- الدّنيا دوّارة. هكذا كنت أردّد في أحاديثي معه.

الخوف يُحتّم عليّ الكتابة، تدوين حياتي بسرعة، لعليّ أنسى أو أخفّف على نفسي حدّة القلق من المستقبل القريب. لم أفكر قبلاً في الكتابة، فقد وهبت عمري، بعد الحرب، للحفاظ على علاقتي بسليمان وتربية القطط والرّسم ورمي اللّوحات في سلّة المُهملات: أوّلاً في ضاحية باريس، ثم في هذه المدينة الصّهباء والمُتوحّدة، التي وصلت إليها شتاء 1951، بدعوة من شاب سيصير رفيقي وشريك وجودي، والذي تعرّفت عليه جنديًا في الكتيبة التي كنت أقودها سنوات الحرب العالمية الثّانية، لأرتبط لاحقًا، على سبيل الصّدفة، بكتابات إيزابيل إيبرهارت، بعدما عثرت على مخطوط نادر لها، في بيت المرحوم سي مصطفى، الموظّف السّابق في دار البلدية، تحكي فيه جزءاً معتّمًا من يومياتها الصّاخبة، قايضته إيّاه مقابل مروحة كهربائية، أعدتُ ترتيب أوراق المخطوط، الذي سهت عنه المطابع، دقّقته، ثم قُمت بتحويل ستّة فصول منه إلى ستّ لوحات تشكيليّة، وضعتها إلى جنب اللوحات السّبع الأخرى التي رسمتها، عن نخيل المدينة ورملها وناسها البسطاء، ولم يتبقّ لي الآن سوى رسم الفصلين الأخيرين منه.

سليمان لم تعجبه فكرة تحويل مخطوط قديم إلى لوحات، لم يرَ في حياة تلك الكاتبة المُسترجلة شيئًا مهمًا، أو- ربما - إن ترجمتي لنصوصها شفويًا له لم تكن صائبة، فهو لا يفهم سوى القليل من الفرنسية، وكذا الحدّ الأدنى من العربية الفصحى، لا يحفظ سوى صغار السّوَر للصّلوات الخمس، يتحدّث ويكتب بالعاميّة، يرتجل أحيانًا شعرًا شعبيًّا، ويسرد عليّ بطولات شخصيات أسطوريّة من الصّحراء أو من الجبل، كالجنيّ الطّيب أو الحصان المُجنّح، ويطلب

منّي أن أرسمها، لكنّي أعتذر منه، لم أجدها يومًا شخصيات مُلهمة، هي تؤثّث أساطير تتشابه فيما بينها، كما لـو أن مؤلّفهـا واحـد، ابتُدِعت للتّسلية ولتمضية الوقت وليس للموعظة أو الحكمة.

- حكاياتك ينقصها الملح. أقول له.

- ربـي يهديك. خير الكلام هو كلام أجدادنا. يردّ.

علاقتي بالأدب بدأت مع إيبرهارت وانتهت معها، مع فواصـل قليلة، في كتب تصفّحتها، ولم أكمل قراءتها أو أكملتها بتكاسـل، ككتاب «الحريق» لمحمد ديب، الذي لم يعجبني كثيرًا وتوقفت عـن تصفّحه في المنتصف، فإيزابيل هي الوحيدة الحاضرة في مخيّلتي، هـي سبب محاولتي التّجريب في الكتابة، لقد قرأت تقريبًا كل ما نُشر لهـا وعنها، وقرأت مخطوطها الأخير الذي لم ينتبه إليه أحـد، ومازلـت أحتفظ به في كيس بلاستيكي أزرق، أضعه في صندوق خشبـي، بجانب رزمة فواتير الكهرباء والغاز والماء، أعود إليـه كـلّ مـرّة، أتصفّحه بهدوء وتمعّن، وأحسدها عليه، وأقول في نفسـي: «ليـتني كنت أنا كاتب النّصّ!». ثم أتعوّذ من الشّيطان وأتذكّر أنني لم أصل إلى الأدب سوى صدفة.

لست أُقارن نفسي بإيزابيل إيبرهارت، لكـنني سـأحاول أن أكتب شيئا يُشبه ما كتبته، وأتغلّب على خوفي من اقتراب الأجـل، ودنوّ موعد الرّحيل من هذا البلد.

سأكتب لأنسى أنني سأرحل من هذه الأرض قهرًا.

سليمان يصغرني بعامين، كان يقول عنه لمنوّر، شيخ الزّاوية الرّيحانية: «إنّه صمت مُدوٍ. يسكنه شخصان، ولم يفلح في التّفريق بينهما. استمع إلى سكوته يا جوزيف ولا تجادله»، حاله لا يختلف عن حالي، مُضطرب وقلق، لكنه يُخفي قلقه بتكرار الحديث عن نيّته في إعادة صبغ البيت بالأبيض، استعدادًا لرمضان وللرّبيع القادمين، ورغبته في تغيير الباب الخارجي الخشبي بآخرمن حديد. أغلب الظنّ أننا سنحتفل برمضان وربيع هذا العام، بعيدًا عن حارتنا وجيراننا وقطّتنا، فلا شيء يُنبئ بأن الأيام الآتية ستنتهي على خير.

- الدّار يقوموا بها مواليها. قال لي.

هو يعتقد دائمًا أنني مقصّر في الاهتمام بالبيت، لا أقوم بواجباتي كما ينبغي، وأن الحيطان يجب صبغها مرّة كلّ عام.

منذ الصّباح، لم آكل سوى بيضتين مسلوقتين، ونصف حبّة مندرين. أطعمت القطّة البيضاء السّمينة والولود وأبناءها الخمسة حليبًا، أفرغت كيسًا كاملاً، اشتريته من دكان الحيّ، في صحن ألومنيوم، تركتها تلحس مع أبنائها وجبتها بشراهة حتى القاع، وبقيت أتردّد على الصّالون والغرفة، أعدّ الدّقائق وأفكر، بنرفزة، في اللّوحتين الأخيرتين اللّتين سأرسمهما.

مرّ اليوم بتراخٍ، جاء، كالعادة، ذلك الطّفل الأسمر، أشعث الشّعر، ذو الملابس الرّثة، يطلب خبزًا يابسًا لغنم والده، وهو يتلعثم في كلامه:

- عمّي الحاج.. أعط.. يني.. خبـ.. ز.. يا.. بس.. ربـي.. يحـ.. فظك!

وتغيّبت العجوز موشّمة الجبين، محدودبة الظّهر، كثيرة الكلام والدّعاء، التي كانت تدقّ الباب طلبًا لصدقة مقابل قراءة كفّي.

تكاسلت و لم أخرج لاقتناء جريدة، كما تعوّدت، و لم أُشغل الرّاديو للاستماع إلى نشرة الأخبار، فكل شيء يبدو واضحًا وغير واضح في آن، المدينة تتكوّر حول نفسها، تدكّ رأسها في حِجرها، وتترقّب نهاية فصل الانتظار، سيحسم الأمر قريبًا ويعرف كل فريق أيّ وجهة يتّجه. لكن، قبل موعد القرار، يتوجّب عليّ إنهاء آخر لوحتين تشكيليتين لي في هذه البقعة شاردة البصر، ثمّ دفنهما، مع اللّوحات الثلاثة عشرة الأخرى، والاستعداد بحنكة وحكمة للآتي. المهم أن لا أغضب ولا أحزن ولا أبكِ، ولا أترك أعين الجيران تنظر إلينا، أنا وسليمان، بشفقة.

شيخ في السّبعين مثلي، خاض حربين، أحبّ ناسًا وكره آخرين، كان يجب أن يكون في مكان يليق بعجزه. في بيت حميم ودافئ، مُحاطًا بأحباب ورفاق، أو في دار للعجزة كريمة، قد تحفظ بعضا من كرامتي الممرّغة في التّراب، المهم كان يجب أن لا أجد نفسي هنا، في حفرة تحمل صفة مدينة، كغصن ليّن قّطع من شجر عتيق، منتظرًا تفاصيل مسلسل كئيب، وغير قادر على تحديد المصير الذي يتحتّم عليّ القبول به.

قبل خمسة أشهر، أجريت عملية لإزالة الماء الأبيض من عينيّ، في المستشفى الوحيد في المدينة، و لم أجد شخصا آخر يقف بجانبي، ماعدا سليمان، الذي كان يجلس على طرف سريري، يميل بجذع جسمه الطّويل، يشدّ على يدي ويكرّر:

- شدّة وتفوت!.. طهور يالعميرة!
- الله يخليك لي!

هو كلّ ما أملك، هو أهلي وعائلتي، سبب خصوماتي وبوصلة مباهجي الصّغيرة، لقد ضعف بصري إلى (-5)، ولم تعد تحتمل ركبتاي جسدي المتثاقل، وسقطت أسناني، وربّما كان من الأفضل أن أموت شابًا، مثل إيزابيل، أن تجرفني مياه وادٍ هائج، أو تلدغني عقرب سامّة، أو تصيبني رصاصة أيّام الحرب، أو أُصاب بمرض مزمن، أو أُسلّم روحي في حادث مرور مثلما حصل مع والدي شارل، هكذا كنت سأوفر على نفسي القلق والخوف والضّعف.

أشعر أن الحياة تتجاوزني، ولن أضيف شيئًا يُذكر لها. لست أملك سوى الجلوس في مكاني، الذي يزداد ضيقًا في ذهني، والنّظر إلى ما مضى وتخيّل ما سيأتي، والدّعاء بأن تسعفني يديّ لرسم آخر لوحتين قبل نهاية الأسبوع.

هذا الصّباح، استيقظت باكرًا جدًا، بعد ليلة أرق، جرجرت قدميّ بهدوء إلى غرفة الخرداوات والكتابة والرّسم، كي لا أوقظ سليمان، هو لا يزال متين العظم، نشط الذّهن، ينام من سبع إلى ثمان ساعات كاملة، لم يهرم مثلي، و لم يُصب بالأرق، ويُعلّل الأمر بطفولته، بيولوجية التّغذية، المُرتوية حليب نوق وخبز شعير؛ وجلست أخربش في الكتابة وفي اللوحات.

نظرت باستغراق إلى أغراض ثمينة مترامية من حوليّ، إلى لوحة إدوارد فرشافليت، التي تصوّر شابّة بدوية بهيّة، بحليّها ويديها النّاعمتين، التي اشتريتها قبل ثلاثة وعشرين عامًا، من السّوق، وبقيت منذ ذلك الحين تتكئ على الحائط، و لم أفكر يومًا في تعليقها؛ وقبل عامين، زارني رجل أصلع، بشارب كثّ، نسيت اسمه، قال إنّه مخرج سينمائي، يُقيم في الجزائر العاصمة وصهر لفرشافليت. عرض عليّ مقابلا محترماً لشراء اللّوحة، لكني تردّدت، طلبت منه منحي أسبوعاً للتّفكير، فاختفى و لم يعُد مجددًا، الآن، سأقبل بأي مبلغ لبيعها، فأنا بحاجة للمال، لتأمين بعض من حياتي القادمة خلف البحر. ثمّ حوّلت بصري إلى مطفأة سجائر مطليّة بماء الذهب، كانت موضوعة على طاولة صغيرة، غنمتها من أيام الحرب، و لم أستخدمها قطّ، فقد كنت أطفئ سجائري القليلة في منفضة حديدية بسيطة، ثم حدّقت بنظري في السّقف دون إبصار، وتمنيت لو أن الوقت يتوقّف عن الدّوران

وتنتهي كوابيسي، بقدرة قادر، وبأقلّ الأضرار.

صوت آذان الفجر وصلني خافتاً مُتذبذبا ورخواً، يحثّ على الكسل، لا على الاستيقاظ، وحاولت جاهدًا أن أتبيّن صاحب الصّوت، ربما كان عبد الله، المُشرف على المايضَة، فهو ينوب أحيانا عن المؤذن السّتيني الحاج عثمان، أو ربما الزّبير، ذلك الفتى الثرثار، الذي لا تفوته واحدة من الصّلوات الخمس جماعة، ولا يتنازل أبدًا عن الوقوف في الصّف الأول؛ يعمل حلاقًا ومؤذنًا من حين لآخر، يفتح صالونه الصّغير، المُجاور للمسجد، الذي تفوح منه دائما رائحة بخور، ويغلقه يوميًا في التّوقيت نفسه: من بعد صلاة الظّهر إلى ما قبل صلاة العشاء. وفي رمضان، يستقبل زبائنه بعد التّراويح إلى ساعة السّحور.

حين وصلت إلى هذا البيت الذي أسكنه، لم يكن المسجد موجودًا، كانت تنبسط مكانه رحبة واسعة، يستغلها باعة المواشي، القادمين من القرى القريبة، يومي الأحد والأربعاء، لعرض بضاعتهم، وترك فضلات غنمهم خلفهم. وبعد أسبوع واحد من انقلاب هواري بومدين على أحمد بن بلة عام 1965، جاء الحاج بلقاسم، المُناضل القديم ورفيق بومدين في جامع الأزهر، مرفوقا بجنود، حوّطوا الرّحبة بسياج حديدي، وبنى الحاج بلقاسم أولاً مدرسة لتحفيظ القرآن للبنات، ثمّ جمع تبرعات من متطوّعين وحوّلها مسجدًا، أطلق عليه اسم والده «الحاج السّبتي لكويش»، أشهر رقاة المدينة، وأطولهم عمرًا، فقد عاش 112 عاماً، لم يمرض فيها إلا قليلاً، ثمّ مات وأورث ابنه الأكبر بلقاسم أرضا وبيتًا ومخبزة في حيّ اليهود، ولم ينس الابن فضل والده عليه، وأقنع رئيس البلدية بتسميّة معهد تكوين الأئمة

أيضاً باسم والده السّبتي. ولّما تُوفيّ الحاج بلقاسم قبل سنوات - لست أذكر تحديدًا متى - في المستشفى العسكري بالعاصمة، رثته نصف المدينة، وحضر جنازته واحد من مستشاري رئيس الجمهورية، ووزيران، تلقيا تعازٍ من النّاس أكثر من تلك التي تلقتها عائلة الفقيد، وبعد حوالي شهرين من وفاته، أُطلق اسم الحاج بلقاسم على حيّ سكني جديد، وعلى مدرسة ابتدائية.

تتداخل في ذهني الذّكريّات، وأعجز أحيانا عن الفرز بينها. ربما هي مقدمة ألزهايمر! مع أني أستبعد ذلك، لست هشّا بما فيه الكفاية لأفقد ذاكراتي كليّة، مازلت - مثلاً - أتذكّر أيامًا مهمّة من حياتي، خصوصًا لما كنت أتلقّى الأوسمة الشّرفية في باريس: وسام صليب الحرب، وسام المُناضل، وسام جوقة الشّرف وميدالية الفارين، التي منحت لي تكريمًا لشجاعتي في الفرار من معتقل ألماني. توجّهت وقتها إلى مخفر للشّرطة، وسط باريس المُحتلة، قدّمت نفسي، بثقة وهدوء، وهوية غير هويتي الأصلية:

- أنا طالب وأبلغ سنّ العشرين. فقدت وثائقي حين ذهبت للسّباحة في نهر السّين.

ولم يستطع أحد اكتشاف هويتي الحقيقية كملازم ثانٍ في جيش المقاومة. هذه واقعة أكسبتني بعض الأيام الهادئة، عام 1943. كلّ الأوسمة التي نلتها ظلّت معي، طوال حياتي، أحتفظ بها في الغرفة نفسها، في صندوق نحاسي صغير، أضعه أسفل خزانة الملابس والمقتنيات. سليمان يحسدني عليها، ربما تمنّى أن يحظى بواحدة منها، على الأقل ليسكت الألسن الطويلة التي تشكّك في دوره إبان الحرب العالمية الثّانية.

- هل صحيح أنّ سليمان كان جنديًا معكم؟ سـألني مـرّة أحدهم في المقهى.
- نعم.
- رجل حربـي فعلاً؟
- نعم. كان شجاعاً.
- لا أظنه كان كذلك. الدّليل أنه مش قادر يعيش بالمصروف تاع رأس الشّهر.
- الحكومة في فرنسا تنوي رفع معاشاهم!
- ربما سيرفعون معاشات الجنود الآخرين، لكن لن يرفعـوا معاش سليمان!

قال جملته الأخيرة بسخرية واستخفاف وانصرف.

لم يكن بمقدوري الدّفاع عنه، فالجميع يعرف الصّلة الحميمـة التي تجمع بيننا، وكلّ حديث لي عنه لايخرج في نظرهم عـن صـفة المدح، ففي هذه المدينة المتكوّرة حول نفسها، مثل قنفذ في سبات أو متربّص بفريسة، عادة ما يقتل الصّمت الصّخب، وإن حدث وتحدّث النّاس فهم يتحدّثون دفعة واحدة ولا يفهم أحد شيئًا مما يقولون.

أشياء قليلة كانت تفرض عليّ البقاء فيها، وأشياء كثيرة كانت توسوس لي بأن أغادرها، ربما هي لعنة ما، أو دعاء رجـل صـالح، حكما عليّ بالتّنازل عن فكرة الانتقال للعـيش في قسـنطينة أو في الجزائر العاصمة، فقد سبق أن فكرت مع سليمان في مشروع وكالة سياحية في الجزائر العاصمة أو في قسنطينة، تختصّ في التّعامـل مـع السّياح القادمين من أوروبا، من فرنسيين وإنجليز وألمـان وإسـبان وبولونيين وروس، لكن المشروع بقي فكرة مجرّدة، مخططا على ورق

فقط، بسبب العثرات الإدارية المتكرّرة ونفاد صبري السّريع وتقاعس سليمان، وجاءت إيزابيل إيبرهارت ومخطوطها، في الوقت المناسب، لينقذاني من ضجر رافقني طويلا.

أنا لست أعرف تحديدًا، هل أحببت نصوصها وفقط، أم أحببتها هي كامرأة!

- هل يُعقل أني أحببت، في سرّي، امرأة من دون أن أعرف؟ تساءلت.

كنت أحبّ أن أقرأ لها ليلاً، وأنا أمضغ خبزًا وقليلا من جبنة «الكونتي» القادمة من سهول جورا، شرق فرنسا. القراءات الماراثونية تشعرني بالجوع، ولا أمانع في تدليل نفسي من حين لآخر، لا أكتفي فقط بالأكل، بل أيضا بشرب ما وصلت إليه يدي من نبيذ محلي أو فرنسي، بحسب المزاج.

سليمان لم يكن يروقه رؤية قنينة خمر في الغرفة، أو في المطبخ. في البدء كان ينصحني بالتّوقّف عن الشّرب.

- حبّس الشّراب يالعميرة. راك غير هّلك في صحتك.

لكن، بعد فترة وجيزة، ملّ من تكرار الموضوع نفسه.

- أنا عسكري، والعسكري ما يرجعش للوراء. قلت له.

تذكّر أنني عشت بذهن متصلّب ومزاج حادّ ومتقلّب، وبقينا نواظب معًا على الواجب الدّيني من صلاة في البيت وفي المسجد، مقابل أن يتغاضى عن نزواتي الشّخصية، لكن لم يحصل أن تجاوزت حدّي وثملت، احتراما للجيران، أعرف أن الجدران تلتقط دبيب النّملة، وحكاياتي في البيت قد تبلغ بسهولة بيوتا مُجاورة، هذه خاصية عربية تعلّمتها و لم أغفل عنها، النّاس لا يتنازلون عن حقّهم

في التّلصّص على عادات الجيران السريّة، معتبرين الفعلة شيئا طبيعيًا، فمن منظورهم، من غير اللائق أن تعيش في حيّ دونما أن تكون على اطّلاع بما يحصل خلف حيطانه.

لو متّ غدًا، فلن يجدوا سقطات مهمّة ليتداولوها عنّي، فلست سوى فرنسي تافه، قرّر أن يُساير حماقاته ويعيش في هذه البقعة الموبوءة بالخلافات القبلية، عشت فيها مُعتمدًا على معاشي، متسكّعا في الأسواق والمحلات والحارات العتيقة، أشتري أدوات رسم ومقتنيات قديمة، ونادرًا ما كنت أستقبل أصدقاء، أو رسائل من الأهل وراء البحر، آكل جنبريّا أو سردينا مجمّدا كلّ يوم جمعة، يأتي في شاحنة شركة الأسماك، من الجزائر العاصمة وبجاية، ألبس برنوسا من وبر في الشّتاء ولا أبصق أو أقذف مخاطًا على الأرض مثلهم. جيراني لا يعرفون عنّي سوى القليل، أو ربما لا يريدون معرفة الكثير، فعندما يحصل أمر ما، أو ينظّمون حفل زواج أو ختان، لا يقدّمون لي دعوة مباشرة، بل يبلغونني بالأمر عن طريق سليمان، ويطلبون منه أن أحضر معه. هم هكذا، يعتبرونني قاصرًا في حضور سليمان، كان «وكيلي» وواسطتي في تعاملي مع الجيران، يمنحونه الحظوة كما لو كان وليّ أمري، ويتركونني في الصّفّ الثّاني. وهذه الأيام صار كلامهم شحيحًا مع سليمان، نظراتهم تجاهي أيضا تبدّلت، هم يعرفون المصير الذي سيحلّ بنا بعد أقلّ من أسبوعين، ربما يتعاطفون معي في داخلهم، لكنهم لا يقولونها علنًا.

- ربي يسهّل على كلّ واحد. يبرّر سليمان جفاءهم تجاهنا.

أحيانًا، عندما يتعكّر مزاجي، أو لا أجد ما أفعل، أجلس في مقهى «شالون»، هكذا تعوّد النّاس على تسميته، نسبة إلى اسم

مؤسّسه الفرنسي، رغم أن صاحب المقهى الجديد يُعلّق في الخارج لافتة كبيرة كُتب عليها بخطّ أخضرعريض «مقهى السّعادة»، أتأمّل حركة النّاس المتباطئة، وأنا أشرب كأس شاي أو كوب عصير طازج، وألتقي رغمًا عني صاحب المقهى الخمسيني، الأصلع البدين، معوّج الفكّ السّفلي، الذي لا يملّ من تكرار الحكايات نفسها عن فحولته، حين كان نادلا في أحد بارات مرسيليا، قبل خمسة وعشرين عامًا، مزهوًا بحياته الشّبابية مع سائحات إيرلنديات، ومضاجعاته ليافعات ألمانيات وسويديات، لكنه في المرّة الأخيرة بدا لي مُختلفًا، باهتًا، لم يثرثر كثيرًا، طأطأ رأسه ونظر إليّ من أعلى نظاراته الطّبية، حين توجّهت إليه لدفع حساب كأس شاي، وقال بصوت هادئ:

- راهم يقولوا أنّ الحالة ما تعجبش يالحاج!

أخبرني عن نيّته في العودة إلى مرسيليا، لتنظيم حياته مجدّدًا هناك، في حال تحقّق ما يُكتب في الجرائد عن سيناريوهات قاتمة للوضع السياسي في البلد، وإمكانية تردّي الوضع الاقتصادي، بعد الدّور الثّاني من الانتخابات، ثمّ ابتلع ريقه وصمت.

لم أكترث كثيرا بكلماته، لم تكن لي رغبة في مجاراة ثرثرته، نظرت إلى اللافتة التي علّقت فوق رأسه وكُتب فيها:

«من شاء أن يحظى بأطيب قهوة.. فعليه بمقهى السّعادة»

ورددت عليه:

- خسارة أن تترك المقهى ولا أراك مجدداً!

ثم استدرت وعدت إلى البيت.

كتبت إيزابيل إيبرهارت في مخطوطها الــذي أنهكــتني قراءتــه وإعادة قراءته: «الصّبر ضعف»، هي لم تكن صبورة، كانت تحــبّ سريعًا وتهجر سريعًا، تؤمن بالشّيء سريعًا ثم تكفر بــه ســريعًا، لم تخلّصها رحلاتها الطّويلة في الجنوب الصّامت والمتوحّــد، تيهانهــا في بلاد الرّمال الحارّة، جلساتها الصّوفية التأملية، خصوماتها الصبيانية مع المتملقين لقلبها وتجاربها العاشقة، من قلقها المزمن، ومــن رغبتــها العتيقة، التي ورثتها عن أمها فاطمة المنوبية، في التّغــيير والتّجديــد. كانت تشبهني في نرفزتها، فحروف كتابة مخطوطها وخــطّ يــدها اليسرى يفضحها، لقد قضيت شهراً كاملاً وأنا أرتّــب صــفحاته المصفرّة وأعيد نسخ بعض فصوله، التي لم تكن واضحة، علــى ورق مُقوّى أبيض وبخطّ حبر أسود واضح.

شعرت مرّات كما لو أنها كانت تكتب وهي شــبه مغمضّــة العينين، إمّا نصف مخمورة أو نصف مسطولة، أو ربما كانت تكتــب وهي على عجل من أمرها، تترك أحيانًا هوامشَ غير مفهومة: «**عبور الوادي ثم العودة**»، «**تمزيق القماش الأحمر**»، «**وكز الخيل**» وغيرها من الهوامش التي لم أفهم ماذا كانت تقصد منها، لقد جرفها الوادي، وتوارت تحت الأرض، دون أن تشرح للقراء هوامشها الطّارئة.

إيزابيل كانت صورة مؤنثة منّي، نصــرانية مُتأســلمة، قلقــة وملعونة، لا هي أوروبية ولا هي عربية، مع أني اكتســبت حظــوة

أفضل منها لما حفظت حزبا من القرآن، وتعلمت لغة العرب أحسن منها، صرت أكتبها قليلاً وأتكلّمها كثيرًا وأسبّ وأشتم بها بإتقان، بدل الفرنسية التي ظلّت تلجأ إليها دائما كلما استفزها أحد ما، حصل أنّي بذلتُ جهدًا أكبر مما بذلت، وتعلّمت العربية، على يد الشّيخ البردعي، في المسجد الكبير، الذي نطقت فيه الشّهادتين، على اللوح وبالكتابة بالصّمغ، علّمني الشّيخ البردعي، بصبر وحنكة، حروف الهجاء والأسماء والأفعال، وكنت أدفع له كلّ نهاية شهر ورقة 20 فرنكا، يفرح بها:

- بارك الله فيك يا سي جوزيف وكثّر من أمثالك. كان يقول.
- البركة فيك يا «سيدي». العلم ما يتوزن بالمال.

كنت أفرح كفرح طفل صغير يوم العيد بقدرتي على محادثة سليمان بلغته.

كلماتي لن تبلغ إيزابيل، فهي الآن تتلذّذ بنومتها الصّحراوية، في تلك المدينة البعيدة المُسماة «عين الصّفراء». في المرّة الوحيدة التي زرت فيها عين الصّفراء، كان الفصل شتاءً، لسعتني برودته الجافّة بمجرد نزولي من الحافلة. أقمت في نزل حقير، وسط البلد، لم يكن يتوافر على تدفئة، كنت ليلاً أغطي جسدي المرتعش بأربع بطانيات، وفي النّهار أتسكع ببرنوس من وبر الماعز، ألبس تحته معطفًا من الجلد.

زرت إيزابيل – أوسي محمود، كما كانت تسمّي نفسها – في مقبرة «سيدي بوجمعة» ثلاث مرّات: المرّة الأولى لقراءة الفاتحة على روحها، وإشعال شمعة، والثّانية لتحويط القبر بالطّوب، بعد ما بلغني عن كلاب ضالة كانت تنبش القبور. اشتريت كيس إسمنت، وطوبا،

ودفعت أجرة العامل الشّاب الذي قام بالمهمة، وفي الزّيارة الثالثة، لتوديعها وإشعال شمعة أخيرة، في اليوم الثالث، وجدت أن أحدهم قام بإزالة الحائط الصّغير، وترك لافتة كرتونية، فوق القبر، كُتب عليها:

«لا فرق بين مُسلم ومسلم إلا بالتّقوى».

كان يمكن لهذا المجهول التّقي أن يُعلّم الكلاب لغته الخاشعة، لتتوقّف عن المساس بحرمة الموتى، لا أن يتطاول عليّ بإيمانه.

كتبت على ظهر اللافتة الكرتونية نفسها بالفرنسية:

«للأموات حقّ عليكم».

أعدتها لمكانها ومنيّت نفسي أن يقرأها. وعدت في اليوم الموالي إلى البيت، بعد رحلة بريّة دامت يومًا كاملا.

قبل ثلاث سنوات، سمعت أن كاتبة شابّة انتحرت ودُفنت بالقرب من قبر إيزابيل. قرأت في جريدة الحزب الوطني أنّها تُدعى زهرة، وكانت توقّع قصصها وقصائدها باسم صافية كتو. كانت قارئة وفية لإيزابيل، وعاشت حياة مليئة بالخيبات مثلها، متنقّلة من مكان لآخر، ومن قلب رجل إلى قلب رجل آخر. هي أيضا كانت تحبّ سريعًا وتملّ سريعًا، تكتب لتنتقم من نفسها، تغازل القلوب وتسرقها لتنتقم من حبيبها الأول، الذي هجرها في لحظة كانت تمتلئ فيها أملاً وشبقًا. لم أقرأ لها بعد، لكني أثق في خيارات الصّحافي الذي كتب عنها، لقد قدّمها في الجريدة بشكل يليق بواحدة من مثيلات «مدام دو ستايل».

مقبرة عين الصّفراء لا بدّ أن تكون أكثر المقابر حظًا في البلد كلّه، فهي تحتضن جثماني إيزابيل وهذه الشّابة المسمّاة صافية، التي كانت تظهر في صورة لها بشعر أشقر وجبهة ناصعة وبشرة بيضاء، ولو كان بالإمكان لأوصيت بدفني أنا أيضا هناك، بينهنّ، لعلي

أصحو يومًا من تحت التّراب وألاقيهنّ. سليمان لن تعجبه الفكـــرة، لقد أصمّ أُذنيّ وهو يكرّر قناعته:

- المُسلم يُدفن في الأرض التي مات فيها.

وهذه المدينة التي أعيش فيها تبدو مُهيّأة لاستقبال كل الوافدين إليها، ولا تبخل عليهم بحفرة عرضها شبرين ونصف شبر، ففي حيّ «الأقواس»، على المخرج الجنوبـــي من المدينة، توجد ثلاث مقابر: مقبرة للمسيحيين وثانية للمسلمين السّنة والثّالثة للإباضيين.

الإباضيون لم يحصل أن ربطتني علاقة مـــع أيّ أحـــد منـــهم، يُصلّون في مسجد صغير يخصّهم، ويعيشون في الضّاحية الشّرقية مـــن المدينة، بعيدًا عن البقية، يتزاوجون فيما بينهم فقط، ويتكلمون لهجة لا يفهمها غيرهم، لا يختلطون مع بقية النّاس سوى في التّجارة، ولهم شارع يُسمى حيّ «بني ميزاب»، تصطف فيه دكاكين لهم، تبيع كل شيء، من خبز وحليب إلى أدوية وعقاقير، وكذا قطع غيار مركبات جديدة وأخرى مُستخدمة، يُتاجرون في كلّ شيء يحتمل البيع، بما في ذلك الجرائد القديمة، التي اصفرّ ورقها، يبيعونها بالوزن، وليس بحسب العنوان أو بحسب قيمتها التاريخية.

إن حدث ومتّ هنا فلا خيار لي سوى المقبرة السّنية، هي أكبر المقابر الثلاث، لها حارس كهل، بشارب كثّ، وزوّار يتردّدون عليها أيام الأسبوع، يزداد عددهم صبيحة كلّ جمعة، بعضهم يأتي حـــاملا طبق كسكسي، يوزع ملاعق منه على المارّة، وعلى زوّار المقـــبرة، طلبًا للدّعاء لواحد من الموتى، وآخرون يحملون معهم قارورات عطر محلية الصّنع وقوية الرّائحة، يرشّونها على تربة القبور، وعلى الشّواهد، إيمانًا منهم بأنّها تعطّر روح الميت.

لست متأكدًا إن كانت لديّ الرغبة في أن أُدفن في هذه المدينة الفظّة والجاحدة، ولكن إن حصل واقترب فراق روحي عن جسدي، فلن أطلب من سليمان أو من سينوب عنه لحظة احتضاري، سوى شيئين اثنين: أن يكتب على شاهد قبري اسمي الحقيقي: جوزيف رينشار، وأن يأتي، على الأقلّ، مرّة كل شهر، ليرشّ القبر ببعض الماء، لعل بعض الحشائش تنبت بين التّربة المصفرّة، وتؤنس وحشتي.

يبدو أني عشت ما فيه الكفاية، شهدت الحرب العالميّة الثّانية، صافحت الجنرال شارل ديغول ونظرت في عينيه وتبادلت كلمات قليلة معه، عرفت حرب الجزائر، مظاهرات ماي 1968، تابعت حرب إسرائيل عام 1967، ردّ العرب عام 1973، خطابات هواري بومدين الصّاخبة، غضب أكتوبر 1988، حرب الخليج الأولى ثم حرب الخليج الثّانية، سقوط جدار برلين، وحياتي مع سليمان، بحميمياتها ونزواتها، بطبقاتها السّفلى والعليا، ولا مانع من أن أخلد لنوم أبدي. لكن، ليس الآن! مازلت لم أنته من بعض الأشغال الأساسية، لم أنهِ بعد لوحتيّ الأخيرتين، ولست أعرف أين سأستقر بعد أسبوعين من الآن، بعد نهاية الانتخابات: هنا أو هناك!

مساء أمس، سمعت طلقات نار، أو خيّل لي أنني سمعتها، لست متأكدًا، لكن أُذنيّ بخير، وأظنني فعلاً سمعت شيئًا يُشبه طلقات نار، أو ربما كانت ألعابا نارية. ارتبكت حينها، فهذه المدينة تخمل عادة في الليل وتصير ألطف من سكون الصّحراء، ولا يُناسبها قطعًا رداء الخوف. ربما أنا أبالغ في أحاسيسي، أو ربما هي علامات الشّيخوخة، فسليمان مقتنع بأني كبرت، وأنا مقتنع بأن في العمر بقيّة.

أتخيّل إيزابيل وهي تجلس القرفصاء قبالتي، ترتدي برنوسًا أبيض، من وبر الماعز، وتعتمر بيريه باسكية سوداء اللّون، مثل البيريه التي اعتمرتها في فرنسا لسنوات، ثم غيّرتها بشاش، في الجزائر، تحمل سبحة بحبّات بُنيّة في يدها اليسرى، وسيجارة «لوريون» بيدها اليُمنى، تحرّك شفتيها النّاعمتين، اللتين ورثتهما عنها الممثّلة الإيطالية كلوديا كاردينال، وهي تردّد بعضًا من أشعار عبد الله التّخي أو محمد بن قيطون، تروبادور الصّحراء ومدّاحها، بعربيتها الركيكة، التي فشلت، أو ربما لم يسعفها عزرائيل، في تعديلها، لتصير عربية فصيحة، تليق ببدوية من أصول أوروبية.

أحببت أن ألتقيها لأُريها بعض لوحاتي، خصوصا منها لوحتي التي رسمتها لواحة المدينة، ونخيلها وسواقيها، ربما لن تعجبها، مثلما لم تُعجب سليمان، فلست بموهبة محبوبها أوجين فرومونتان في شيء، ولم أبلغ مستوى رسّامها المفضّل ماكسيم نواري، أو ربما ستقول أنها مُعجبة بها، فقط إرضاءً لغروري، أو ربما ستصمت ولن تقول شيئا، حينها سأستغل الفرصة وأعرض عليها ما تعلمته من لغة العرب، أرتل أمامها بعضًا من صغار السّور: «قل أعوذ بربّ النّاس..»، «قل هو الله أحد..» و«لإيلاف قريش..» وسورة «الأعلى» التي أحفظها عن ظهر قلب، وقليلاً من متن ابن عاشر، وأبياتًا من قصائد الحاج عبد القادر الدناوي، وأحكي لها قصص الجنية والغول، وخرافات الحبّ والموت والانتقام، التي سمعتها من لسان سليمان.

ربما صوتي لا يُناسب إلقاء الشّعر ولا حكي القصص، فهو رقيق وحادّ، يتزّن فقط لما أُحاول أن أتصنّع لكنة لا تشبه لكنتي، هو نشاز لا يصلح لا للغناء ولا لإثارة الانتباه، لكن المهم هوالمعنى الذي لن يشقى ليصل إلى عقل إيزابيل، فقد كانت انعكاسًا لي، كانت أنثى ببحّة ذكر، كما لو أنّنا انتحلنا شخصيتين غير شخصيتينا الحقيقيتين، أو ربما خُلقنا لنعيش حياة غير تلك التي نريدها لأنفسنا، فأنا لم أفكر يومًا في الحرب، لكني وجدت نفسي متورّطًا فيها، قتلت أناسًا لا أعرفهم، في فرنسا وفي الجزائر، بالسّكين وبالمسدس وبالرشّاش «الماط 49»، الذي كنت أتداول عليه أنا وسليمان، سنوات ثورة الجزائر، وكِدت أن أُقتل في كمين نصبه الألمان، تمامًا مثلما حصل مع إيزابيل التي قتلت رجالاً بهجرانها لهم، وكادت تُقتل بطعنة سيف، وهي شابة في الرّابعة والعشرين، بسبب حماقة رجل كان يغار من وجهها وعلمها وزهدها.

ففي ذلك اليوم الدّافئ، على غير عادة شهر جانفي، كانت إيزابيل تتكئ على حائط، في الزّاوية «القادرية»، جنوب البلد، تُغطّي رأسها بقلنسوة البرنوس، تخفض البصر، وتُترجم شفويًا رسالة، من الفرنسية للعربية، لتاجر شاب، يُدعى عبد الله، من مدينة «قْمار»:

«سي عبد الله،

كيف حالك يا ابن عمّي؟ وكيف حال أطفالك؟

والدتك ليست بخير. حالتها تتدهور.

إنها تسعل كثيرًا، وأحيانا يشتدّ عليها السّعال ليومين أو ثلاثة أيّام. سعال يرافقه بلغم أو قطرات دمّ. حرارتها في ارتفاع، وقد فقدت الشّهية والرّغبة في الأكل. في بعض الأحيان تستيقظ ليلاً وهي تعرق، جبهتها تتفصّد عرقًا.

لقد عرضناها أكثر من مرّة على طبيب فرنسي، ثم على الرّاقي، لكن حالتها لم تتغيّر. جار لنا وهو إمام يُدعى الحاج الرقوبي نصحنا بنقلها من قسنطينة إلى عنابة للعلاج، وأعطانا عنوان ابن خالته لمساعدتنا عند وصولنا هناك، ونحتاج أن ترسل لنا بعض المال لدفع أجرة السّيارة وثمن الطّبيب والأدوية.

أختك فطوم تتمنّى أن تردّ علينا في أقرب وقت، وترسل لنا المطلوب لو أمكن.

الخيدر،

ابن عمّك»

فجأة، بينما هي تكمل ترجمة ما جاء في الرّسالة، نزلت على كتفها الأيسر ضربة، حادّة وقويّة، بسيف، أعاقت ذراعها أسبوعًا كاملاً عن الحركة، وراحت تصرخ عاليًا:

«ياناس.. حاب يقتلني!.. حاب يقتلني!»

لحسن حظّها أن مريدًا من الزّاوية يُدعى سعد أسرع، من الخلف، لشلّ يد المعتدي اليّمنى بضربة عصا، ثم دفعه التّاجر الشّاب عبد الله إلى الوراء، لتنجو إيزابيل من محاولة الاغتيال. بعدها حُكم على المعتدي بعشرين عامًا أعمالاً شاقّة، وأُمرت هي بمغادرة الجزائر، خوفًا من انتقام أهل المعتدي وقبيلته منها، فهاجرت إلى مرسيليا مُرغمة، ثم عادت منها إلى الجزائر، وفاءً لسيرتها في التيّه والتّرحال، بعد ترسيم زواجها من حبيبها سليمان أهني.

في صغري، لم أفكر في التّرحال، ووجدتني مثلها أغادر صقيع مدينتي الشّمالية، وألجأ إلى هذه البقعة المتكاسلة والصّادمة، فلا شيء كان يُنبئ بأني سأبقى فيها أكثر من بضعة أسابيع، لكنني فعلت. آمنت بالقدر

وآمن القدر بـــي. بعد أربعة أشهر من وصولي إليها، فكّرت في زيـــارة راهب فرنسي، كان يعيش في دير في الصّحراء، هجره الرّهبان الآخرون وعادوا إلى بلدهم، وظلّ وحده يعيش هناك، رفقة كلاب وقطط وفئران وقوارض وحشرات سامّة وأخرى مُسالمة، في دير لا تصل إليه سيارات نقل المسافرين، فقد أوقفني سائق السيّارة البيضاء على حافـــة طريـــق، وأخبرني أن «بيت النّصارى»، كما يسمونه، يوجد على مسافة بضـــع دقائق مشيًا، يومها تعلّمت أن بضع دقائق في عُرف الجنوبـــي الأسمـــر تساوي ساعة حسب التّوقيت العادي، فقد بقيت أمشي ما لا يقل عـــن السّاعة أو أكثر بقليل، على أرض ترابية، خالية سوى مـــن شـــجيرات الشّيح والعرعار، المتباعدة فيما بينها، بالكاد كنت أرى حجرًا أو علامة حياة. لا بشر يمرّ من هناك. كان مكانًا موحشًا، أشعرني بخوف وبغربة، وفي نهاية المسير، لاح لي بيت صغير، من طين وطوب، لا نوافذ فيه ولا باب، بل مجرد ستار أزرق قاتم يفصل الدّاخل عن الخارج، و لم أعـــرف لحظتها هل أُنادي على الرّاهب أم أدخل مباشرة!

ناديت عليه:

- «Monsieur Bernard!»(سيد برنار!).. لكنه لم يردّ.

أعدت المناداة ثانية بصوت أعلى وأجاب بصوت خشن:

- «Qui est-ce?»(من؟)

لم أعرف كيف أجيب، هل أقول أنا وفقط! أم أقـــول زائـــر يقصدك!.. صمتت، فجاء، بعد لحظات، هو بنفسه. رأيتـــه أمـــامي بجسمه النّحيف، وياقته السّوداء، بحزام أبيض يشدّه علـــى الخصـــر، بلحية رماديّة وعينين جاحظتين، يحمل بيده اليسرى كتابا بغـــلاف أحمر لم أتبيّن عنوانه. قلت له بالفرنسية:

- اسمي جوزيف.. جئت من بعيد لزيارتك.

صافحته وسلّمته كيس فواكه، اشتريتها من بقالة على الطّريق.

لم يكن فرحًا ولا مستاءً من زيارتي له، دعـــاني للـــدّخول إلى الدّير، ودون أن يسألني، حضّر فنجاني شاي أخضر. كان ديرًا ضيقًا، بأرضية مغطّاة بحصائر، متّصلا بغرفة صغيرة تستخدم كقاعة للصّلاة، مع حدّ أدنى من الأثاث، وكانت توجد شمعات منفـــردة مشـــتعلة وموزّعة على أطرافه.

لكسر الصّمت الذي دام لحظات بيننا، سألته بدون مقدمات:

- لقد تركت ضاحية باريس، وأفكر في الاستقرار في مدينـــة الولي الصّالح سيدي ثامر. ما رأيك؟

لم يردّ عليّ بشكل صريح، وافق وعارض بصمت وبتحريـــك رأسه من اليمين إلى اليسار، ثم من الأمام إلى الخلف.

- من لا يشقى لا يفقه شيئا من الدّنيا. قال.

لم أسمع منه ما كنت أريد سماعه، لم يبلغني إجابة شافية، راضية أو نافية لخياري.

ظلّ تقريبا صامتًا، طوال ساعتي الزّيارة، يتلو صلوات ودعوات، ويردّ عن أسئلتي بالبقاء أو مغادرة هذا البلد بإجابات فلسفية، ولمـــا سألته كيف يتوقّع شكل الحياة في الجزائر مستقبلاً، أجاب:

- الحياة هانية والنّاس هايجة! قالها بالعاميّة.

حين غادرته، ودّعني بمثل شعبـــي يقول:

- اللي ما هامْ ما عامْ ما يعرف قداش نهار في العام.

عندما عدت إلى البيت، في بوسعادة، أخبرت سليمان بما جرى، فردّ عليّ:

- خذْ الرّاي اللي يبكيك ولا تاخذْ الرّاي اللي يضحكك.

مرّة أخرى، لم أفهم ما يقصده.

مع مرور السّنوات، يبدو أنني فهمت سبب صمت الرّاهب وعبارة سليمان، فالعيش هنا ليس خيارًا، بل هو قدر متوحّش كان يتوجّب عليّ تقبّله رغمًا عني. برنار عاش في هذا البلد، مُقتنعا بأنه يخدم الربّ، وأنا عشت في هذا البلد، مقتنعًا بأن فعلتي تخدم نزوات الذّات وتُرضيها. هو عاش متمسكًا بالدّين نفسه، وأنا تركت دين والديّ وأسلمت بعد بضع سنوات وذهبت إلى الحجّ، قبّلت ستار الكعبة وصعدت إلى جبل عرفة، ودعوت الله: «اللهم اغفر لي إني كنت من الظّالمين!». ثم رسمت لوحة لمشهد الحجّاج وهم يطوفون حول البيت الحرام، لم تعجبني فرميتها.

أحيانا أتساءل:

- لوعاشت إيزابيل إيبرهارت طويلاً، هل كانت ستحجّ إلى بيت الله؟

ربما كانت ستذهب إلى الأرض الحرام لتلاقي عشاقًا جددًا، تجرّب تيّها مختلفًا، وتكتب يوميات أخرى، مُطهّرة بالتعبّد وبماء زمزم.

محظوظة إيزابيل لأنها ماتت شابّة و لم تعرف أرذل العمر، وهن العظم وشيب الشّعر وضعف البصر وعجز الركبتين.

لقد صرت أشعر بضعف يسري في عروقي كلما دخلت بيت الخلاء، بالكاد أستطيع التبوّل بشكل طبيعي، أشعر بألم حادّ في المثانة قبل أن أطرح البول خارجًا، أحيانا تُراودني غباوة تقليد غيري، وارتداء حفاظات للكبار، لأوافر على نفسي مشقّة الذّهاب إلى التواليت. وضعي الصّحي والنّفسي يزداد ارتباكًا، والكلمات لا تعبّر عن حالتي فعلاً.

- ما يحسّ بالجمرة غير اللي عفس عليها. يقول سليمان.

الشّهية لم تعد تراودني، أكتفي بالقليل من الفواكه الطّرية، وبعض الماء والبيض والحليب، أقتسمه مع القطّة السّمينة وصغارها الكثر، مع عصير ليمون حامض بلا سكر، وحساء ساخن من حين لآخر، فالأسنان تساقطت، ووضعت مكانها طقما اصطناعيًا، أغسله كلّ ليلة قبل النّوم، والأعين ضعفت، و لم تنفع معها كثيرًا عملية نزع الماء الأبيض، والأيدي أُرهقت وصارت ترتجف وأنا أرسم. مع ذلك، هناك خيط يشدّني إلى الأمام، ويحميني من السّقوط، سأكمل اللّوحتين المتبقيتين، وأنتظر نهاية الأسبوعين المقبلين، لأتذكّر مجددًا عبارة الرّاهب، لما خاطبني:

- ستتعب من التّرحال ثم تعود من حيث آتيت.

هو لم يتعب من التّرحال ومات في دير آخر قرب الحدود المغربية ودُفن هناك.

لماذا كان يعتقد أنني سأعود من حيث أتيت؟

زوينة هي الوحيدة التي تحاول الرّفع من معنوياتي، فهي تعتقد أنني لم أهرم، أو ربما تتصنّع لطفًا مُبالغًا فيه معي. تأتي صبيحة كلّ ثلاثاء لتنظف البيت، تغسل الملابس وتقلّل من عزلتنا، أنا وسليمان.

- ياالحاج جوزيف، مازال فيك البركة! تقول.

هذه الجملة بالذّات كلما سمعتها منها شعرت بأنها مبتذلة، رغم يقيني بأن زوينة امرأة شفافة ونقيّة ولا تكذب إلا نادرًا. لست أطلب منها أن تتحدّث، لكنها دائما تتحدّث رغبة منها في الثّرثرة وقتل الصّمت العميق الذي يغرق فيه البيت، تتكلّم في موضوعات أحيانًا لا أفهمها، عن جارة لها أنجبت اثني عشر ذكرًا وأنثى، وتريد أن تتمّ

عدد ستة عشر طفلاً، عن زوجها المكفوف، الذي يتقاضى، من الدّولة، منحة شهرية هزيلة، عن نسوة تلتقيهن في الحمام، حيث تعمل أيضًا كمدلّكة، كل صبيحة جمعة، منهن بائعة حليّ وأخرى تعمل مُرضعة لأبناء عائلات ثرية، عن قريبة لها سُرق منها صندوق حليّها ليلة عرسها، وأشياء أخرى سرعان ما أنساها.

تعرّفت على زوينة عن طريق جارتنا الحاجّة خيرة، التي تعلّمت أصول توليد النّساء عن أمها، وصارت قابلة بالوراثة في المستشفى، لما طلبت منها النّصح لإيجاد امرأة شريفة وجيّدة، لمساعدتي أنا وسليمان في التّكفل بأشغال البيت، أشارت عليّ بزوينة، التي تعمل أيضا في غسل الصّحون في مطبخ المستشفى.

في البدء، سليمان وجد الفكرة غريبة، وأنا لم أخبره بالتّفاصيل إلا بعدما اتفقت مع زوينة، على العمل يومًا واحدًا في الأسبوع، مقابل 250 دينار في الشّهر، قبلت العرض وارتاب سليمان من ردّة فعل الجيران.

- واش يقولوا علينا النّاس؟ تساءل بنرفزة.
- ما فيها حتى عيب. المرأة حابة تخدم على شرّها.

راح يتمتم كلمات لم أفهمها، معبرًا عن عدم رضاه، وأضاف:

- أنت تحب تجيب العيب وكلام الجيران.

لم أردّ عليه، وانتبه بنفسه، مع الوقت، أنّ لا ضرر في الأمر، فالمرأة تتجاوز الأربعين، وهي متزوّجة ولها ثلاثة أولاد، كما أن مظهرها ليس فيه ما يُغري النّاظر، تأتي إلى البيت دائما مرتديّة جلابة زرقاء، باهتة وطويلة لا تغيّرها، وخمارًا أسود أو أبيض، يغطّي شعرها، وفوقهما تلبس «ملحفة» بيضاء تغطي كامل جسدها، لا شيء يظهر من مفاتنها ولا تضع ماكياجا على وجهها، هي تخجل

منّا أكثر مما نخجل منها، لا تدخل غرفة النّوم لترتبّها قبل أن تستأذن منّا، لا تسأل عن حياتنا الخاصّة، ولا تأكل سوى ما نقدّمه لها، وعادة ما كنت أكرمها بنقود زيادة، فقد كانت، من حين لآخر، تطبخ لنا، وتجلب لنا لبنًا أو منقوع تمر.

قبل أيام، أخبرتني بأنها ستحضّر لنا طبق «الشَرْشمْ»، بالقمح الصّلب والحمص والفول، بمناسبة رأس السّنة الأمازيغية الجديدة. لست أحبّ كثيرًا هذه الأكلة التّقليدية، إلا أنني لا أمانع في الاحتفال بالمناسبة. لكني لست متأكدًا إن كنّا سنحتفل بها في ظروف حسنة وملائمة أم لا، لست أعرف كيف ستسير الأمور: هل سنشرع وقتها في حزم حقائبنا أم سوف ننتظر قدرًا آخر، ونعيش مجددًا شتاء هذه المدينة المتعجرفة الذي وصل مبكرًا! برد قارس، يبلغ ذروته في السّاعات الأولى من الصّباح، وريح قوية، بين الفينة والأخرى، تهزّ نوافذ البيت بلا شفقة. لكن لا أمطار تنزل ولا ثلج يهطل، مناخ بارد وجاف، منذ أربعين عامًا أتحمّله قسرًا، هو مناخ لا يرحم أصحاب العظم الهشّ ولا يُبالي بهم، في الصّيف يزداد قساوة، وترتفع الحرارة إلى أكثر من أربعين درجة، ويحصل أن تنقطع الكهرباء يوما أو نصف يوم، وتتوحّش رياح «الشهيلي»، والأسوأ من كلّ ذلك هو مشهد العقارب الصّفراء السّامة، بمقارضها السّوداء وأذيالها المعقوفة، وهي ترقص وتمارس شهواتها، بكلّ حريّة، في الحوش وفي حديقة البيت.

كلّ هذا العمر الذي قضيته ومازلت أحمل فوبيا من منظر عقرب حيّة.

إذا لم أمت بلدغة عقرب، فسأموت من العزلة.

صارت مليكة يافعة، مُكتملة الجسد، شاهدهما بعد الظّهيرة، في مخبزة الحيّ، سألتني بسرعة عن حالي وعن حال سليمان، أمام أعين الخبّاز المتلصّصة، بصوت خافت:

- واش راك عمّي الحاج؟
- بخير يا بنتي!
- واش راه عمّي سليمان؟
- لا بأس عليه

خفضت رأسها، وقلت لها:

- سلّمي على باباك بنتي!
- يبلغ نشا الله.. هلى في روحك الحاج! باي.. باي!

وخرجت تحمل معها كيسًا من ثماني خبزات أو أكثر بقليل، تتباطأ في مشيتها وتترنّح مثل طاووس، وأنا أحدّق، من خلف، في مؤخرها المُكتنزة، المشدودة بسروال جينز برتقالي.

- يا سيدي الجيلالي! قلت في نفسي.

الإناث يكبرن قبل الذّكور، ما زلت أتذكّر شكلها وهي صبيّة بكّاءة، مُحمرّة الوجنتين، تتبوّل في حجري، وتصدّ سليمان كلّما أراد تقبيلها على خديّها. كانت، ولا تزال، البنت المُفضّلة عندي، من بين بنات الحيّ كلهنّ، كنت أشتري لها حبّات حلوة، بطعم النّعناع وأخرى بطعم الفراولة، أغدق عليها بدنانير يومي عيد الفطر وعيد

الأضحى، وفي المولد النّبوي، وأوفر لها كراريسا وأقلاما ملوّنة جديدة كل شهر سبتمبر، مع العودة إلى المدرسة.

لست أعرف تحديدًا سنّ مليكة، ربما أربعة عشر أو خمسة عشر عامًا، فنهديها تكوّرا كما ينبغي لمُراهقة، ويبقى لهما أن ينتفخا قليلاً أكثر لتصير امرأة، ووركيها اتسعا ووجهها لامسته بثور صغيرة، لكنها لم تنقص من أنوثتها وجاذبيتها شيئًا. ربما هي أيضا سمعت بالمصير الذي سألاقيه وإمكانية رحيلي من المدينة، بعد أيّام قليلة، لذلك لم تطل الحديث معي، ربما سمعت بالأمر من والدها أحمد، العامل البسيط في مصنع الأجر، الذي ينعت سليمان ساخرًا بـ «الضبّ»، أو من أحد أبناء الجيران، لعلها لن تحزن كثيرًا لفراقنا، أنا وسليمان، لكنها لن تفرح أيضا، أما أنا فسأشعر بانقباض وخيبة لأني لن أراها تكبر أمام عينيّ، ولن أتجسّس على سخافات مراهقتها، ولكن من أعماق قلبي أتمنّى لها حياة أفضل، أن تجد رجلا وسيمًا وجادًا يُناسبها ويُحبّها، وأن لا تبقى طويلاً في هذا الحيّ البائس، بين حيطان بناياته الكولونيالية، بين مسجد ومقبرة للشّهداء وأعين شرسة تترصّد كلّ أنثى، كي لا يتحرّش بها المعتوه عبد الكريم طيطي، فقد سمعت أنه صار يتحرّش، أمام النّاس، بالفتيات اللواتي يرتدين تنانير قصيرة، ويرمي الحمض الحارق على سيقانهن، وقد توعّد لو أبصر واحدة منهنّ في خلوة، بصحبة رجل غير محرم لها، أن يفقأ عينها.

لا أريد أن تقع مليكة بين يديه، فريسة لوقاحته، إنه ضخم الجثّة، غليظ الكفّ وفارغ المُخّ، أنا لا أستطيع فعل شيء أمامه، سيرميني أرضًا بصفعة واحدة، وأخشى أن يُضايق مليكة بسبب سفورها البريء، وأن لا يحتمل النّظر في شعرها الأسود الأملس،

وعينيها البنيتين اللامعتين، فهو لم يجد من يقف في وجهه، كلّ أبنـــاء الحيّ يخافون منه، الجميع يتذلّل له. عبد الكريم طيطي هو سيد العراك الثّنائي، فقبل أن يصير زعيمًا على الحيّ، قام أولاً بالتّشاجر مع شباب في العشرينيات، في مثل سنّه، تغلّب عليهم واحدًا تلو الآخر، وأعلن نفسه بعدها سيّدًا مُطاعًا، يُلزم أحيانا أصحابه من غير المُصلّين، على الوضوء والصّلاة في المسجد، وينظّم حملات لمنـــع السّـــكارى مـــن الدّخول إلى بيوتهم ليلاً، يُجبرهم على النّوم في الشّارع عقابًا لهـــم، كثيرًا ما كنت أسمع صراخهم ومناوشاتهم وأنا ممدّد، بـــالقرب مـــن سليمان، في الفراش، وصبيحة كلّ جمعة، يخرج باكرًا من بيت أبويه الصّامتين، اللذين لا يعترضان على فعلاته، أو ربما لا يتجرأن علـــى وضعه عند حدّه، خوفًا من ردّة فعله، مرتديًا قميصًا أبيض يصل إلى أعلى الكعبين، ويذهب إلى السّوق المغطاة، يشتري صندوقي خضـــر أو ثلاثة من تجّار الجملة، ويعيد بيعها في الحيّ بالتجزئة، وأحيانا يعمل كحارس ليلي لمدرسة ابتدائية قريبة، هو يقوم بكلّ هـــذه الأشـــغال لكسب بعض النّقود، التي يستغلها غالبًا في دفع مســـتحقات قاعـــة كمال الأجسام التي يتردّد عليها، واقتناء منشّـــطات لتســـريع نمـــو عضلاته، وأتجنّب مرارًا ملاقاته والحديث إليه، هو يعـــرفني، وربمـــا يعرف كل شيء عنّي، هو من النّوع الذي يراني أجنبيا، «روميـــاً»، وليس مسلماً كامل الإسلام، ولا مُطيعا متمًا لأركان الدّين الخمسة، هو لايختلف عن «الأفغانيين» الذين تتحدّث عنهم الصّحف، الـــذين حاربوا السّوفيات في كابول وعادوا إلى الجزائر ليحاربوا الأجانـــب وغير المسلمين، سمعت عنه حكايات غريبة، بأنه يأكل ما يُعادل وجبة ثلاثة أشخاص، في الغذاء ومثلها في العشاء، وسمعت أنه يدكّ أيره، في

جذع شجر الصّبار، كلّما شعر برغبة في ممارسة الجنس، ويدهنه بنسغ الصّبار، من حين لآخر، فشباب الحيّ يعتقدون أن ذلك النّسغ يُساعد على زيادة حجم القضيب ويمنحه قوّة، وهي خرافة سخر منها سليمان مطوّلا، حين سمعها، لأوّل مرّة، و لم أصدّقها أنا يومًا.

- الرّجلة ليست في حجم القضيب. علّق سليمان.

هل كان هذا المعتوه المغترّ بنفسه سيتجرّأ على التّحرش بإيزابيل؟ لا أعتقد، فقد كان كلما اقترب منها رجل ليعتدي عليها، خرج له «سي محمود» من جسد إيزابيل النّحيف، سي محمود ذو الأظافر الطّويلة الوسخة، والصّراخ الحادّ، يلوي رقبة من يتحرش بإيزابيل، ويذلّه أمام النّاس. كانت إيزابيل فعلاً «عَيْشة رَجل»، أُنثى بهرمونات ذكر، كما سخر منها سليمان، بضحكة طويلة.

- هذه الرّومية ركبها جنّ. قال لي.

كانت بنتًا مُسترجلة، تُضاجع الذّكر والأنثى، لا تكتفي بجنس واحد، تلبس هويتين في جسد امرأة، وتغيّرهما وقت الحاجة، تعبر الشّوارع والسّاحات في هيئة رجل، وتختلي بنفسها، في بيت أو في ماخور، كامرأة مُكتملة المفاتن، لست أجد لها شبهًا سوى في جارتنا لالة سعدية، التي تتحوّل، في أيّ لحظة، وبسهولة، من امرأة إلى رجل، ومن رجل إلى امرأة، لقد مات زوجها عبد الرحمان، سنوات حرب التّحرير، في كمين نصبه خونة، كانوا يعملون لصالح الاستعمار، للمجاهدين، و لم تر جثّته يومًا، حيث دُفن في مقبرة سريّة، بالقرب من غابة عين الغراب، وبعد الاستقلال، نقلت منظمة المجاهدين رفاته إلى مقبرة الشّهداء، بالقرب من البيت، ثم أخبرت أرملته بالأمر وصارت لالة سعدية تزور قبر عبد الرحمان كل جمعة،

تلبس ملحفة بيضاء، وتحمل معها بخورًا تشعله على قبر والد ابنتــــها الوحيدة فاطمة، وبقية الأسبوع تقضيه في المناوشـــات مـــع نســـوة الجيران، اللواتي كنّا يتحاملن عليها، في حين لم يجدن صيغة للتّعامــل معها، ومع مزاجها العدائي، بودّ، صرن يتّهمنها بالسّحر والشّعوذة، وبأنها تمنع ابنتها من الزّواج، وتصنع عقاقيرَ لمنع بنـــات الحـــيّ مـــن الزّواج أيضا أو الإنجاب، لكن لالة سعدية لا تفوّت الفرصة من دون الردّ عليهن، بصوتها العالي الخشن، وبدعواتها عليهن، وبتهديدها لهن بحرق أجسادهن يومًا ما، ورميها للكلاب الضّالة، وكـــلّ صـــباح، تتزيّن، كما ينبغي لامرأة ستينية، تضع سخاب العنبر فوق صـــدرها، ترشّ بعض العطور المحلية على رقبتها، وتذهب إلى السّـــوق لاقتنـــاء حاجيات أو إلى زيارة بعض معارفها، قبل أن تعود بعد الظّهـــر إلى معاركها الاعتيادية، ووعيدها وتهديدها لغريماتها، هكذا تعيش كامرأة لا تُهادن، وابنتها تُشاهد معاركها، من النّافذة، لكنها لا تقول شيئًا، خوفًا من أمّها أو شفقة عليها، لا تدافع عن لالة سعدية ولا تُهاجمها، تنتظر فقط نهاية المعارك اليومية، لتغلق النّافذة وتعود إلى وحـــدتها في الدّاخل.

أحاول أن أتحايل على الزّمن، وعلى النّسيان، بالكتابة والرّسم، فلا شيء آخر صار يُغريني، ولا شيء تقريبًا صار يصلح في جسدي المُتآكل، لا رغبة لي في الحلم، لا سقف تطلّعات يُراودني، وبالكاد صرت أشتهي أكلاً مُعينًا. مضت السّنوات السّمان وجاءت السّنوات العجاف، فلا الأكلة التّقليدية «زْفيطي»، التي تُصنع من خبز الرخساس والطّماطم والتّوابل، ولا الطّبق الشّعبي «شخْشوخة»، الذي يُحضّر بعجينة المْسمن ومرق، ولا قطعة جبن فرنسي ولا سلطة خضراء، ولا غيرها من الأكلات التي كنت أحبّها، صارت تستهويني.

أعييت نفسي بنفسي.

أنا رجل ميؤوس من حاله.

شبه رجل، أو حطام كائن حيّ، أرسم وأكتب ولا أفعل شيئا آخر، غير انتظار مصير محتوم.

أتصوّر الأرض وهي تدور الآن، تُسرع في دورانها، وتطرح الزّوائد من البشر، الذين يثقلون حركتها مثلي، خارجها، تتركهم يسبحون في الفضاء اللا منتهي، بلا وجهة، كجثث بلا هويّة، تتحرّر من الأوزان الإضافية، التي لا فائدة منها، ببصق من يُضايقها وجودهم، في درب التبّانة الواسع، وتكمل دورانها برشاقة أكبر.

ولكن، لو يطيل الرّب في عمري فسوف أتمّ مشروعًا فكّرت فيه، وأكتب رواية، أعنونها: «خضرة تهزّ ردفيها وتلوّح لعشاقها».

قد يبدو العنوان إيكزوتيكيًا، لكنه ليس أكثر إيكزوتيكية من عنوان رواية «خضرة، راقصة أولاد نائل» لذلك الرّسام المُتحزّب إيتيان دينيه، الذي كنت أُعيد رسم لوحاته، في شبابي، وسرعان ما أتخلّص منها في سلّة المهملات، كان يدّعي محبّة النّاس ويمقت، في عمقه، قبيلة «أولاد نائل» العريقة ويسخر منها، يُصوّر رجالها كقوّادين ونساءها كعاهرات.

سوف أكتب رواية أردّ فيها على ادّعاءاته، وأصحّح فيها بعض أخطائه، فقد كان لا يكتب سوى لغرض واحد: هو تحريك شهوة الفرنسي الكسول، المكبوت والعاجز عن الانتصاب أو القذف، يصوّر له جنوب البحر المتوسط على أنه ماخور كبير، أبوابه مفتوحة للقاصي والدّاني، والنّسوة فيه يرقصن بغنج ويلحسن الأيور بحبّ وسخاء.

أعرف أني لست جيّدًا في الكتابة، لا أمتلك أسلوبًا سرديًا مُقنعا مثل أسلوب إيتيان دينيه، لكن سليمان ربما سيُساعدني، مثلما ساعد سليمان بن براهيم إيتيان دينيه، وقصّ عليه حكايات وردية وناعمة من ليالي اللّذة في قبيلة أولاد نائل، أعاد الآخر فقط تحويرها وخطّها بلغة فرنسية عالية المقام.

سوف أكتب انتقامًا من إيتيان، وإنصافا لبنات أولاد نائل الرّقيقات والوديعات والمحبّات للأجنبي ولابن البلد. بنات لم أجد مثيلاً لهنّ لا في تونس ولا في مراكش، بنات مستعدّات لتقطيع أوصالهن من أجل الحفاظ على علاقتهن بالمحبوب، ولما يكرهنه فلن يحميه منهن ومن بطشهن سوى جنّي ماكر، أو قدر صافٍ، فهن لا يرحمن من يُخاصمهن. إيتيان دينيه نجا ربما من كيدهن، أو ربما تصالح معهن خفية، بعدما أساء إليهن.

لقد عرى سوأهن وكتب:

«ماذا لم نقُل عن النّائليات!

لقد تعوّد العرب أن يدعوا بصوت عال: «اللّهم احفظ سيدي نائل! كم هنّ جميلات سليلاته! كلامهنّ يزن ذهبًا وهنّ أنعم من شمع النّحل».

خيمة قبيلتهم، الشّهيرة بخطوطها الحمراء، لا تُدير ظهرها لزائر، فالأحمر كان دومًا لون غبطة. بنات الخيمة الحمراء يسمونهنّ «المراهقات الطرّيات، الجذّابات، سارقات العقول». شهرتهنّ سبّبت لهنّ غيرة أخريات، نسجن خرافات للنّيل منهنّ.

عرب القبائل الأخرى يُحابون سادة أولاد نائل، طمعًا في بعض بناتهنّ اللّواتي يُمارسن البغاء».

ذلك الرّسام، محدود البصر، المُنحاز لأصوله الأرستقراطية، لم يكن يعرف الكثير عن النائليات، لم يبلغه شيء من مآثرهن وقت الضّيق، اختصرهنّ في قبيلة من الرّاقصات، مشدودات البطون، متدلّيات المؤخرة، يستيقظن صباحًا للتسوّل في حارات الأوروبيين، وفي المساء يرقصن في بارات أمام بعض الجنود الفرنسيين البائسين، مقابل بعض الفرنكات.

أنا متأكد أنه لم يقرأ عن تاريخهن، المنبسط على أرض الجزائر وليبيا ومصر واليمن والسّودان، ولم يسمع شيئًا من قصّة لالة تركيّة النّائلية، تلك الشّابة الثلاثينية، التي أنجبت ستّة ذكور، وهبتهم كلهم، عن طيب خاطر، لأزواج فرنسيين أصابهم العقم، وبقيت هي تربّي بناتها الثلاث، ولم يسمع عن قصّة خالتي ربيحة، التي كانت تركب ظهر بغلها، كلّ يوم، لتجلب الماء، من على بعد ثلاثين كيلومترًا،

لمدّة عام كامل، كي تحمي أبناء الحارة، التي كانت تسكن فيها، من حمّى التيفوئيد. هو لم يُشاهد سوى نهود النائليات المتكوّرة أفضل من تكوّر نهود الباريسيات، وأفخاذهن العريضة أكثر من أفخاذ الألمانيات.

فكرت مرّة أن أترجّم بعض المقاطع من رواية «خضرة، راقصة أولاد نائل» للعربية، وأطلب من سليمان أن يقرأها، ثم يساعدني في كتابة قصّة تردّ على ما جاء فيها من وهم وافتراءات، لكن الكسل منعني، وقرأت الرّواية على الشّيخ موسى القطّ، الذي حفظ القرآن في صغره، ومتن الأجرومية عن ظهر قلب، ثم درس في جامع الزّيتونة، وعاد منه معلمًا للغة العربية في المدرسة المجاورة للبيت، فحكي لي قصّة خضرة الحقيقية، التي حرّفها إيتيان دينيه ومرّغها في وحل شهواته:

«خضرة بنت الطّاووس زريدي كانت تسكن في حيّ العرب، يقول الشّيخ موسى القطّ، *في زقاق يكتظّ بالفقر والعوز، وُلدت هناك، وليس في ماخور كما يعتقد بعض النّاس. وُلدت من أب فرنسي، كان يعمل ميكانيكيا في ثكنة العسكر، رفض الاعتراف بها، تجنبًا لتحمّل النفقات. هي البنت الوحيدة للطاووس، التي أنجبت قبلها ولدين، الأول مات، في الثّانية عشرة، بالحمى الصّفراء والثّاني عاش حتى منتصف الثّلاثين، ومات غرقًا في بئر. في سنّ الخامسة عشرة، لما بدأ جسد الصّغيرة خضرة في التشّكل، وأخذ نهداها في التّكور، شرعت في مرافقة أمّها إلى «قهوة الزّهو»، وهو بار شهير، كان يوجد وسط المدينة، يرتاده جنود فرنسيون، يصرفون فيه يوميًا كلّ ما في جيوبهم، ويخرجون منه متململين ومتساقطين على الأرض. كانت*

خضرة مراهقة جميلة، بيضاء البشرة، تصبغ شعرها بالحنّاء، تعمل مرّة نادلة، ومرّة أخرى في غسل الصّحون والكؤوس، مقابل قليل من الفرنكات، تتسلّمها أمها نيابة عنها. بعد سنة واحدة من دخولها قهوة الزّهو، صارت خضرة راقصة، ترقص النائلي والرّقص الشّرقي، يطلب منها جنود فرنسيون أن تهزّ بطنها، وأن تحرّك ردفيها، كيفما شاءوا، إغراءً لهم وإغاظة لزملاء لهم. أمّها كانت سعيدة بمنجز ابنتها، ذات العينين الخضراوين البراقتين، كانت تصفّق لها مع المصفقين، وتجمع المال المتساقط على ثدييها الصّغيرين، وكانت تسمح لها، من حين لآخر، أن تُضاجع بعض الزّبائن، من أولئك الذين يدفعون مسبقًا جيدًا، فارضة شرط ممارسة الجنس من الدّبر فقط، حفاظا على عذريتها.

بين الرّقص ومضاجعة زبائن محظوظون والعودة إلى البيت للنّوم كانت خضرة تقضي يومها، وسرعان ما بدأت تشعر أن حياتها باتت مُملّة، وبدأت تحسّ بالضّجر وتفكر في تغيير نمط عيشها، حتى التقت بن علي في البار ذاته، وهو شاب فحل، إباضيّ من غرداية، متمرّد على طقوس عائلته، طويل القامة وأسمر البشرة، كان يبيع الصّوف في الأسواق الشّعبية، ويعربد من وقت لآخر. طلب يدها من أمها، التي قبلت في البدء ثم رفضت بسبب عدم تفاهم على قيمة المهر، لكن خضرة لم تكترث لرأي أمها وفرّت مع بن علي، بعد زواج سريع وسريّ بالفاتحة في مسجد قرية مُجاورة، وكان ذلك زواجها الأوّل والأخير، فقد فكّر كثير من أبناء الأعيان طلب يدها، رغبوا فيها لشدّة جمالها، لكنهم تردّدوا في التّقرب منها بسبب نسبها المشكوك فيه، وسافرت مع بن علي إلى غرداية، خلسة عن أمها، ركبت معه

ظهر جمل، وفضّ بكارتها، في اللّيلة الأولى من فرارهما، على الرّمل، وفي مدينته الصّامتة والكئيبة في الجنوب، وجدت خضرة نفسها غير قادرة على التّأقلم مع شكل العيش المنغلق، تخاصمت مع نسوة عائلته، وتشاجرت بالأيدي مع أخت بن علي الكبرى، ثم قرّرت، بعد شهرين فقط من الزّواج، هجر زوجها الذي رفض تطليقها بسبب حبّه الشّديد لها، ففرّت من بيت زوجها متنكرة في برنوس رجالي، وعادت على ظهر حمار، بعد مسيرة أربعة أيام وأربع ليال، إلى بار «قهوة الزّهو»، الذي دخلته بعد غياب، لتجد من الحفاوة ما لم يخطر على بالها، ورفضت الانصياع لرغبة زوجها في التّصالح معها وفي إعادتها لبيته، هكذا ظلّت لسنوات النّجمة الأولى في ليالي الزّهو الباردة، كانت الرّاقصة الأشهر، في المدينة، التي يتهافت عليها الزبائن، والجسد الأنعم الذي تُدفع من أجل ملامسته فرنكات كثيرة.

عاشت خضرة، إلى غاية سنّ الرّابعة والثّلاثين، في تقارب مع أمّها مرّات وفي تخاصم معها، قبل أن تموت بطعنة سكين، بعد شجار مع زبون فرنسي مخمور، حاولت أن تحتال عليه، وتقبض مالا منه من دون مضاجعته، ولم تمت مجنونة ومشرّدة كما كتب إيتيان دينيه. في حياتها، أنجبت ابنين: ذكر وأنثى، من رجلين مختلفين، لم تذكرهما رواية «خضرة، راقصة أولاد نائل»، أسمت البنت طاووس تيّمنًا بأمها وأسمت الولد حمودة، ابنتها الطّاووس غيّرت اسمها العائلي بعد استقلال البلد وهجرت المدينة ولا أحد يعرف خبرًا عنها، وحمودة التحق بالجيش الفرنسي، ثم تمرّد، في العام الثّالث من ثورة التّحرير، والتحق بالمجاهدين في الجبل، ثم سافر إلى بلاد القبائل، واستقر في مدينة بجاية، عرف كبار القادة عن قرب، ومات برصاصة رفيق له

عام 1959، بسبب عدم احترامه لتعليمة كانت تمنع المجاهدين من المدخنين، وهناك مدرسة تحمل اسمه».

لست أتخيّل خضرة سوى شابة ممتلئة أملاً، طويلة القدّ، وبيضاء البشرة، تشبه إيزابيل إيبرهارت في غنجها المحتشم.. لقد حرّف إيتيان دينيه حكايتها، نزع منها صفاتها الإنسانية وجعل منها عاهرة وفقط، أحببت لو أن إيزابيل كتبت عنها، بصدق وحبّ، أفضل من ذلك الرّسام الباريسي فقير الحسّ والخيال، ربما إيزابيل أيضا لم تسمع عنها، أو سمعت عنها وغارت من جرأتها وقوّة شخصيتها وتشبثها الصّارم بالحياة وبمسرّاتها، وكتبت نكاية فيها عن عاشقتين أخرتين فاشلتين، قصّة بعنوان «نوّار اللّوز» أهدتها لعشيقها الذي خانها: ماكسيم نواري، حكت فيها عن السّعدية السّمراء وحبيبة البيضاء، اللتين قضيتا ثلاثين عامًا في مواعدة العشّاق والانتقام منهم، وفي الانتقال من سرير إلى آخر، حتى قيل أنهنّ ضاجعن رجال المدينة كلّهم، بما في ذلك المجانين والمؤمنين الخانعين جدًّا لله، تمرغنّ في الأجساد الذكورية، حتى كرهن كلّ الرّجال. و«*صارتا كما الأصنام القديمة المنسية، تشاهدان من خلف الدّخان الأزرق المتصاعد من سيجارتهما، مرور الرّجال الذين لم يعد يولونهما أي اهتمام، تشاهدان الفرسان، مواكب الأعراس، قوافل الجمال أو البغال، الشيوخ الذين انتهت صلاحيتهم، والذين كانوا في يوم ما عشاق لهما*»، هكذا وصفت إيزابيل محنتهما وحالتهما الميؤوس منها، وتجاهلت، في غمرة غيرتها، أن تكتب شيئًا عن خضرة بنت الطّاووس وفتوحاتها.

أنا الكائن الوحيد الذي يزور، من حين لآخر، الكنيسة المُتوحّدة، الباردة والصّامدة، وسط المدينة، التي تستميت في مكانها منذ قرن ونصف القرن، أزورها بحبّ كأرملة مخلصة لزوجها، أحمل إليها شموعًا وأوقدها بنفسي، أنفض الغبار على الكراسي الخشبية وعلى الصّلبان، وأصلّي، وعيني لا تغفل عن حارس المكان الخمسيني، رثّ الملبس، الذي يصرّ على التّحديق فيّ، كما لو أنه كان يشفق على حالي. ربما يحدّث نفسه:

- ماذا يفعل هذا العجوز البائس هنا؟

فعلاً، ماذا أفعل في بقعة غادرها الأجانب وأبناء الوطن؟ ولم يبق فيها سوى الأقوياء، وقبالتهم الضّعفاء العاجزون عن الإمساك بقرار. بقعة صار يتهدّدها طوفان باللونين الأسود والأبيض، فالانتخابات ليس يفصلنا عنها سوى أيام قليلة، وانقلاب عميق ربما سيحصل.

أُصلّي صلوات سريعة وقلقة، أدعو الرّب بأن يُجنّبني، أنا وسليمان، كلّ مكروه، ثم أرسم إشارة الصّليب وأخرج مهرولاً، بعد أن أضع خمسة دنانير أو ستّة في يد الحارس، من الباب الجانبي، متجنّبًا المرور من البوابة الرّئيسية، فأنا أدخل الكنيسة وأخرج منها خفيّة، كما لو أني أدخل وأخرج من مكان مشؤوم، أخفض رأسي كشاة مستسلمة لسكين جزّارها، وأمشي بخطوات مُتسارعة، تجنّبا لنظرات المارّة الفضولية أحيانًا، المشكّكة في إسلامي أحيانا أخرى،

فقد لاحظت، في الأيام الماضية، أن النّاس صاروا يتجنّبون السّير على الرّصيف المحاذي للكنيسة، يفضلون السّير والازدحام على الرّصيف المُقابل، كي لا يُخطئ ربما أحد ما الظّن بهم، صاروا يتوجّسون من مبنى عتيق، بُني في أوساط القرن التّاسع عشر، أُزيلت من واجهته كل الإشارات التي تدّل على هويته، لا صليب يعلوه ولا كلمة تعبّر عنه، لا يدق قطعًا أجراسه، بعدما منعت البلدية قرع الأجراس منذ سنوات، ربما يرون فيه مبنى مُعادٍ لهم، ولتقاليدهم.

في الماضي، كانت تصل المتعبّدين من مسيحيين، على قلّتهم، أطباق من الأكلات الشّعبية إلى الكنيسة، عندما ينظّم أحدهم حفلاً عائليًا كزفاف أو ختان، كان أصحاب الفرح يدعون المُصلّين إلى وليمة أكل، ويطلبون منهم الدّعاء، أما اليوم، فالكلّ بات يُعامل «المارابو»، كما يسميه أهل المدينة، بحذر وسوء نيّة، لا أحد يُبادلنا الهدايا، ولا حتى التّحية، كما إن المدرسة التي كانت تُجاور الكنيسة، وكان يُشرف عليها قسّ، قادم من كورسيكا، بصحبة فريق صغير من رجال الدّين، والتي كانت تُعلّم الأطفال الصّغار اللّغة الفرنسية والحساب والعزف والرّسم، وتُعلم النّساء الخيّاطة، وتطبخ للفقراء في رمضان، أغلقت أبوابها بعدما امتنع الآباء عن تسجيل أبنائهم فيها، ثم رحل القسّ نفسه ومرافقوه، بعدما ملّوا من ركود الوضع، إلى الجزائر العاصمة، والتحقوا بكاتدرائية السّيدة الإفريقية، أو «مدام لافريك» كما يسميها العاصميون.

خاطبني سليمان مرّة:

- الدّين في القلوب والقلوب ماتت.

مقبرة النّصارى، الواقعة في الحيّ الشّعبي «الأقواس»، الذي سُميّ كذلك نسبة للأقواس الإسمنتية الكبيرة التي تزيّن مدخل المقبرة،

على المخرج الجنوبيّ من المدينة، بالقرب من سكنات عشوائية، نمت سنوات ما بعد الاستقلال، صارت أيضا موحشة وكئيبة، زُرتها قبل شهرين، بعد أعوام من الغياب، وفوجئت بالوضع الذي آلت إليه، لقد شقّ جيران المقبرة ممرًا ترابيًا وسطها، وصاروا يقطعونها من طرف إلى الطّرف الثّاني، مشيًا أو على درّاجات هوائية أو ناريّة، اختصارًا للمسافة، ودوسًا على الحرمات، بعض القبور نُبشت، كثير من الطّامعين يعتقدون أن المسيحيين الأغنياء كانوا يدفنون أمواتهم مع ممتلكاتهم الثّمينة من مال وذهب، كما شاهدت أيضا مجموعة من المراهقين وهم يسرحون بين القبور مع كلاب لهم. حوّلوا المكان إلى حديقة كلاب وميدانا لتدريبهم، يُربّون فيها حيواناتهم، ويفعلون فيها ما أرادوا: يتبوّلون ويتغوّطون تحت شجر الخروب.

سمعت من أحد جيران المقبرة قصّة أيوب، الطّفل الأشقر الوسيم، ابن الحادية عشرة من العمر، الذي استدرجه مراهقان اثنان، أكبر منه سنّا، بين القبور، بنية أن يبيعا له طائر حسون، ثم تداولا على اغتصابه، قبل أن يلتحق بهما رفاق لهما، ويغتصبه في النّهاية خمسة مراهقين آخرين. في البدء، ابتلع الطّفل العار، لم يقل شيئًا لوالديه، لكن واحدًا من المغتصبين أشفق على حاله، بعدما لاحظ انطواءه، وأخبر والده بالأمر على مضض وركض. والد أيوب فهم ما حصل، فلم يجد سبيلاً لإنقاذ ماء الوجه سوى بيع بيته بأزهد الأثمان، والرّحيل إلى حيّ آخر في الضّاحية الشّرقية من المدينة، لم تكن تلك المرّة الأولى التي يحصل فيها أمر كهذا، فالمقبرة صارت قاعدة خلفية للسّكارى والمثليين وباعة الحشيش والحبوب المهلوسة والعشاق المبتدئين، فظهيرة كلّ إثنين وخميس، مع توقّف الدّراسة، تتعدّد فيها مشاهد عشّاق من طلبة الثّانوية وهم

يتواعدون بين القبور، يسرقون قبلات على عجل، وملامسات خفيفة، صار كلّ شيء مُباح هناك، الحبّ والمجون والتّشويش على خلوة الموتى، أمام أعين مارّة من الحيّ ومن أحياء قريبة.

في داخلي، كان صوت يرتفع ويُعارض غضبي، كما لو أنني، في لا وعيي، كنت أستمتع بالدّور الذي صارت تلعبه مقبرة شيّعت فيها بعضا من أصحابي، على الأقل صار لها دور في الحياة، هي ليست مثل مقابر الأهل في فرنسا، عابسة ومهجورة طوال العام. في هذه المدينة مُصفرّة الوجه، تصير القبور، ذات الشّواهد الرّخامية، التي تلفّها شجيرات الشّيح والعرعار وبعض النّباتات العشوائية الأخرى، معبدًا للأحياء، يطوف فيها شباب متلهّف للعيش.

لقد حصل أن بعث الرّب نفسًا وسط الأموات، وقعت، قبل سنوات قليلة، قصّة سمع بها كل سكان المدينة، وجدوا صباحًا بين القبور رضيعًا في شهره الأوّل، لم تجدّ أمّه مكانًا للتّخلص منه سوى مقبرة النّصارى، عُثر عليه باكيًا بين قبري زوج فرنسي، ماتا عامي 1957 و1965، حمل شاب عشريني الرّضيع بين يديه مُرتجفا، وركض به إلى المسجد، وراح المؤذن يُعلم النّاس بالأمر من مُكبّر صوت المئذنة:

«الله أكبر! الله أكبر! يا ناس الخير، رانا لقينا يَشْيِر (طفل) صغير في جبانة النْصارى، ارواحوا شوفوه وقولولنا شْكون (من هم) والديه!»..

كرّر النّداء نفسه ثلاث مرّات، وقت الضّحى، ثم بعد آذاني الظّهر والعصر، وجاء أهل الحيّ، وأُناس من أمكنة مختلفة، ومن قرى خارج المدينة، لرؤية الرّضيع، غالبيتهم جاءوا فقط لرؤيته من باب الفضول، لا أحد منهم عرف من يكون والداه، وتكفّلت زوجة

المؤذن برعايته أسبوعًا كاملا، ولما عجزوا عن إيجاد والدته، وبعـــدما أبلغوا الشّرطة بالقضيّة، اتفقوا بعد صلاة جمعة على أن يرعاه المؤذن، مع أبنائه الستّة الآخرين، ويُطلق عليه اســـم «عـــزوز»، ويُســـاعده النّاس، كلّ شهر، ببعض المال كنفقة للرّضيع مجهول الوالدين، علـــى أن يتربّى في طاعة الله ورسوله، وربما سيكون مستقبلاً رجلاً صالحًا، يرث عن أبيه، بالتّبني، روح المسؤولية وخصال خدمة بيت الإسلام.

قُبالة جبّانة النّصارى التي ينبش قبورها كلاب وأصحاب كـــلاب، ويرتادها مُخنّثون وطامعون في المال والذّهب، ينتصب عاليًا سور المقبرة الإباضية، التي لم أدخلها يومًا، وشاهدت ما بداخلها فقط مـــن كـــوّة الباب الحديدي، فهي لا تفتح سوى صبيحة الجمعة، لساعة أو ساعتين، محافظة على قدسيتها قدر الإمكان، يأتي رجل سمين، يشبه ســـليمان في وجهه الأسمر الدّائري الشّكل، بلحية بيضاء وشعر أشـــيب، أظنّـــه في حدود السّتين، دائمًا في الوقت نفسه، في السّابعة تحديدًا، يشرّع البـــاب أمام زوّار يأتون للتّرحم على أموات من أقاربهم، ويمنع الأطفال وغـــير الملتزمين بلبس مُحتشم من الدّخول، يعترض سبيل من يلبس شورت أو من لا تضع خمارًا على رأسها، يظلّ يراقب الزوّار، من رجال ونســـاء، بحزم، وهو يتسكّع في المقبرة، وحين ينتهي وقت الزّيارة يُصـــفّر بضـــع تصفيرات قوية وحادّة، يفهم جميع من في المكان معناها، فيُســـرعون إلى الخروج، وهم يردّدون شكرهم وامتنانهم له، مع إكرامه بقطع نقديـــة، وهدايا من عطور وحلوى وملابس قديمة، ووعود بـــالعودة الأســـبوع الموالي، محمّلين بهدايا أخرى له.

على بعد حوالي مئتي متر من مقبرة الإباضيين، في حيّ الأقواس دائمًا، توجد مقبرة السّنة، التي تنزل إليها كل يوم إثنين، بعد صـــلاة

الظّهر، كتيبة من المُخلصين، لتنظيفها، وتنقيتها من الفضلات والحشائش والأشواك، يدخلها النّاس صامتون أو يتمتمون بأدعية، أبوابها الثّلاثة لا تُغلق، ويوم الجمعة تزدحم بنسوة يأتين، في الغالب، متلحفات الأبيض أو الأصفر الفاتح، للتّرحم على الأموات، ورشّ قبور أهلهم وأحبّتهم بعطور محلية، رخيصة الثّمن، بعضهن شاهدهن وهن يلونّ شواهد قبور بالحنّاء أو يبخرن ما حول القبر، وبعضهن الآخر ينبشن خفيّة في قبر لدسّ أغراض حميمة أو قصاصات ورق كُتبت عليها أدعية أو كلام آخر لا أعرفه، كنت دائما أوّد سؤالهن عما كُتب تحديدًا في القصاصات، لكني لم أتجرأ.

إيزابيل إيبرهارت ترقد في مقبرة، لاتختلف عن مقبرة السّنة هنا، تُريح قلبها هناك، في «سيدي بوجمعة» بعين الصّفراء. ولكن، هل تزورها هي أيضا نسوة كلّ جمعة؟ هل يحملن إليها عطورًا رديئة وبخورًا وقصاصات ورق كتبت عليها أدعية؟ لاأعتقد أن إيزابيل فكّرت فيمن سيزورها بعد موتها، هي تركت وصيّة بأن تُدفن حيثما تموت، ونسيت أنها ستعيش في خلوتها وحيدة ومنعزلة، تمامًا كما عاشت في حياتها البوهيمية، أغلب الظنّ أن لا أحد يلتفت إليها من زوّار المقابر، أو ربما هي تتزاور مع تلك الشّابة، المُسماة صافية كتو، التي جاورتها في المقبرة نفسها.

ربما تلتقيها تحت التّراب وتكتب معها قصصًا عن حياة العزلة، بحلوها ومرّها، بمسرّاتها وخيباتها، ربما كانت تتواعد معها تحت التّراب، وتقضي معها لحظات سرقت منها في دنياها.

قبر إيزابيل لا بدّ أن يكون روضة عشق وأدب أو لا يكون.

بقيت، أكثر من نصف ساعة، واقفًا على الرّصيف، مقابل البيت، أواجه ريحًا خفيفة محمّلة بغبار، في انتظار تاكسي تنقلني إلى محطة الحافلات، في طرف المدينة، للتوجّه من هناك إلى «زاوية الرّيحانية»، لملاقاة شيخها سيدي لمنوّر، وإبلاغه باقتراب موعد رحيلي، ودعوته لزيارتي في الضّاحية الجنوبية من باريس، كلما تهيّأت له فرصة المجيء إلى فرنسا، لرؤية ابنته الوحيدة، التي تعمل في قنصلية الجزائر.

نظرت إلى السّماء وهي تتلوّن بالرّمادي، وانتظرتها أن تقطر لكنها تمنّعت. شعرت، للحظة، ببرد مُنعش يُصافح وجهي، وسمعت صخب جرّار يمرّ من خلفي. فكّرت في القطّة، فقد نسيت، هل أطعمتها صباح اليوم أم لا! على كلّ، هي لم تحتج، لم تموء ولم أراها تحتكّ بحائط المطبخ كما تعوّدت.

كانت تمرّ أمامي كثير من السّيارات، القديمة في جلّها، التي يصل الأذن هديرها من على بعد عشرات الأمتار، فغالبية ما يمتلكه النّاس سيارات فرنسية أُهلكت في بلادها الأصلية، ووصلت إلى هذا البلد لتُتم ما تبقى لها من عمر قصير. أحيانًا يتملكني خوف من ركوبها، أتخيّل سيناريوهات سوداء ونهايات درامية، كأن يفقد السّائق السّيطرة على المكابح وتصطدم السّيارة بشاحنة أو جدار، أو أن ينفجر واحد من الإطارات، ويتطاير جميع الرّكاب في الهواء، فكلّما

ركبت سيارة شرعت في الدّعاء وفي تكرار الشّهادتين سرًّا، سائلا الله أن تمرّ الأمور على أحسن حال، وأحسن الحال يعني أن أصل وجهتي سالمًا، لايهمّ إن كان باب السّيارة لا يُفتح سوى من الدّاخل، أو إن الزّجاج لا يُغلق، أو كان المقعد غير مريح ويوجّه سلكًا حديدية لمؤخرة الجالس عليه، هذه كلّها عوامل تهون مقابل الوصول إلى وجهتي بأخفّ الأضرار، كما يقول المثل الشّعبي: «المهم، سلامة الرّأس!».

توقّفت أمامي، بعد ملل تملكني من طول الانتظار، سيارة بيضاء، من نوع بيجو 404، وسمعت صوت السّائق يُنادي من الدّاخل:

- وين راك رايح يا حاج؟

أخبرته بوجهتي إلى محطة الحافلات، و لم يُمانع، بعد أن أخبرني أوّلا بالتّكلفة.

- عشرة دنانير.

وافقت سريعًا، بتحريك رأسي من الأعلى إلى الأسفل، ففي مثل ذلك الجوّ الملفوف بالغبار، لم يكن أمامي خيار المناقشة، والأخذ والردّ معه في تخفيض التسعيرة، وكسب دينار أو اثنين إضافيين. قبلت وركبت. لقد توقّفت عن السّياقة منذ أكثر من عشر سنوات، بعدما ضعف بصري، بعت سيارة رونو4، التي سافرت بها للحجّ، مع سليمان، وسلّمت نفسي لسائقي التاكسيات الجشعين.

مررنا بساحة أول نوفمبر، التي ينتصب فيها تمثال صخري لرجلّ يحمل بندقية، كُتب أسفله: «تضحيتنا للوطن خير من الحياة». ساحة يتناوب على احتلالها عاطلون عن العمل وباعة متجوّلون، بعض

العاهرات في نهاية الأسبوع وتجّار مُخدرات، حيطانها صارت تكتظّ بملصقات، وقوائم طويلة بأسماء مرشحين للانتخابات، من أصحاب الوجوه الأربعينية والخمسينية والسّتينية، وجوه مربّعة الشّكل وأخرى مستطيلة، غالبيتها تظهر بلحى خفيفة، والبعض منها بلحى كثّة، أما النّسوة المترشحات فقد اختفين خلف خمار، أبيض أو بالألوان، وقبالتهم صور مرشحين آخرين، مُنافسين لهم، بربطات عنق وشوارب طويلة. النّاس يمرّون أمام صوّر المرشحين دون أن يكترثوا كثيرًا إليهم، يُحدّقون بطرف أعينهم في الوجوه المعلّقة ويمشون، وإن أرادوا التّعليق على الانتخابات، وعلى ميولاتهم السّياسية فلا بديل لهم عن المقاهي، كالمقهى المُسمى «قهوة لاجوناس»، أو في المساجد، خصوصا بعد صلاة الجمعة، حيث يتحلّقون جماعات للحديث في القرآن والسّنة والسّياسة، وفي التّنكيت حول الأئمة وشيوخ المدارس القرآنية، فقد ترشّح إمام سابق لمسجد حيّنا، وزار الحيّ المرّة الماضية، صافح بعض المُصلّين، بحرارة، في بهو قاعة الصّلاة، وفي المايضة، تكلّم معهم، ووزّع عليهم مطويّات برنامج حزب العدالة، الذي انضم إليه، وتلقى وعودًا من طرف بعض الشّباب للتّصويت للقائمة التي انضمّ إليها، شريطة أن ينظر في مشاكلهم بعد وصوله إلى البرلمان، ويوفر لهم فرص شغل وحلولاً ميسّرة للظّفر بسكن.

- الشّباب حابين يتزوّجوا. يلزمهم خدمة ودار. خاطبه أحدهم.

- بربي نشا الله نوقفوا معاكم. ردّ عليه الإمام المترشح.

سلّمني أنا أيضا واحدة من المطويات البيضاء، كُتب عليها بالأخضر محاور الحزب الذي ينتمي إليه، ووعوده بإعادة الاستقرار

للحياة الاجتماعية، مع الدّفاع على شريعة الله، والحدّ من مظاهر الرّشوة في الإدارة.

- نحن نتكّل عليكم. انتخبونا ثم حاسبونا. قال لي.

بدت لي وعوده للشّباب فضفاضة، تصلح لجذب النّاخبين، لكنها غير صالحة للتّجسيد على أرض الواقع. سليمان وافقني في الرّأي، لكنه بدا متعاطفًا معه، وقال لي:

- الشّعب بات يثق في أصحاب اللّحى، يجد فيهم بديلاً من أجل تدارك الأزمات المالية والسّياسية التي دخلتها البلاد.

سائق التاكسي سألني عن حالي، عن صحتي، وعن اسمي، لكنه لم يقل شيئا عن الانتخابات، وانعطف بعد ساحة أول نوفمبر يمينًا، وعبرنا حيّ «ديار الزوالية»، أو هكذا يسميه النّاس، هو واحد من الأحياء الأكثر اكتظاظًا، بناياته طوبية وهشّة، بعض منها لايتوفر لا على الكهرباء ولا على الماء، يسكنه خصوصًا أناس جاءوا من الأرياف القريبة، ومن القرى المجاورة، هو مُرادف للجريمة ولقطاع الطّرق ولتجارة الحشيش والحبوب المهلوسة والسّلاح والدّعارة والسمسرة، هناك تعرّضت جارتنا حيزية لسرقة قلادتها الذّهبية. ذهبت لديار الزوالية لتبتاع أربعة كيلو غرام من الصّابون الأسود، بسعر مخفّض مقارنة بسعره في السّوق، ولما خرجت من بيت السّيدة التي باعتها الصّابون، ومشت قليلاً، أوقفها شاب طويل القامة، بعينين منتفختين ومحمرّتين، للتحدّث معها.

- هل أجد عندك عشرين دينارًا؟ سألها.

وفجأة، قبل أن تردّ عليه، وصل شاب آخر من الخلف وسحب القلادة من رقبتها بقوة، وركضا هاربين.

حينها كانت حيزية ترتدي فستانًا أزرق، يُظهر أعلى صدرها ورقبتها. شعرت كما لو أن سكينًا حزّ نحرها. كانت حدّة خطف القلادة وخشونة يد السّارق أشبه بضربة سكين، قالت لي. و لم تجد ما تفعله سوى الصّراخ والعويل:

- سرّاقين.. سرّاقين!

لكن، لا أحد انتبه إلى أمرها، ولا واحد من جيران الحيّ سعى لنجدها، تركت الكيلوغرامات الأربعة من الصّابون الأسود التي اشترتها أرضًا، وهرولت إلى مخفر الشّرطة، الذي لا يبعد عن الحيّ بأكثر من خمسمائة متر. طلبت، بنبرة باكية، وهي تلطم صدرها بكفّ يدها اليمنى، مُقابلة مُحافظ الشّرطة «الكوميسار» الحاج رزقي، الذي لم يمتنع عن مقابلتها، وشكت له قضيتها، مترجيّة إيّاه، وهي تبتلع دموعها، أن يساعدها في استعادة القلادة التي كلّفتها سنوات من العمل الجادّ في تجارة الملابس النسائية، المستوردة من فرنسا ومن سوريا وتركيا.

وقف الكوميسار غاضبًا من كرسيه، مُهددًا ومتوعدًا بالانتقام لها.

- ما تبكيش. نجيبو ربّه من الأرض أو من السّماء. قال لها.

وخرج فورًا في سيارة للشّرطة، من نوع جي5، مرفقًا بشرطيين اثنين، وبحيزية، وأخذ يجوب أزقّة ديار الزوالية ويطلب منها تفحّص وجوه الشّباب، العابرين منهم والجالسين، وتحديد الشّخص الذي استوقفها للحديث معها وغافلها.

لم تستطع حيزية تحديد صورة الشّاب المعتدي في ذهنها، فقد تمت العملية بشكل سريع، ومُفاجئ. ولما لم تتعرّف على الشّاب

المعتدي، أخذت في الإشارة بإصبعها إلى كلّ واحد تشكّ فيه، وتشعر بأنه يشبه الشّاب الذي استوقفها، وكان الشّرطيان يقومان، في كلّ مرّة، باعتقال من تشير إليه بإصبعها، بقوة، هكذا امتلأت السّيارة بخمسة معتقلين، قُيّدت أيديهم جميعًا إلى الخلف، نُقلوا إلى المخفر، أجلسهم الحاج رزقي على كرسي خشبي طويل، وطلب من حيزية أن تعيد التّركيز في وجوههم وتحدّد الشّخص المطلوب.

- شوفي مليح. شْكون اللي سرقك؟!

لكنها تلعثمت، و لم توفّق في تحديد المتّهم، فلم يجد الكوميسار سوى عصا وحزامًا جلديا لضربهم وجلدهم جميعا، أمامها، غير مبالٍ ببكائهم وصرخاهم المستغيثة، وهو يطلب منهم أن يقرّوا باسم الجاني الذي خطف القلادة الذّهبية من عنقها، لكنهم نفوا كلّهم علمهم بالقضيّة.

كانت حيزية تنظر إليهم وهم يصرخون من آلام الضّرب بتلذّذ، قالت لي أن مشهد توسلاهم لها، وللكوميسار، كان كفيلاً بمواساة حزنها، والتّقليل من صدمة فقدان قلادة كانت قيمتها تتعدّى الثلاثة ألاف دينار.

- يستاهلو أولاد الحرام! لصوص. قالت لي.

مرّت أيام، ولا شيء حصل، فلا حيزية استعادت قلادها الثّمينة ولا الكوميسار استطاع توقيف المعتدي، و لم تعد حيزية من يومها إلى المكان نفسه، خشية أن ينتقم منها الشّباب الذين اهمتهم بالفعلة.

بمجرد الخروج من ديار الزوالية، مرّت أمامنا دراجة ناريّة، كان يركبها شابان، ويصدر منها أزيز عالٍ، ظلّ يرنّ في أذني للحظات، وأقلق السّائق أيضا، الذي علّق متأففًا:

- هذي طائرة وليست موتو!

بعد حوالي عشرين دقيقة من السّياقة، في طرق طينية ومحفّرة، لاحت محطّة الحافلات، وظهرت عناقيد البشر، من أطفال وكهول وشباب ونساء، وهم يجلسون على الأرض، أو يستندون إلى حائط من طوب، في انتظار وصول الحافلة.

كان اليوم أحدًا، والوقت منتصف النّهار، وفكرّت ربما أنني جئت في وقت غير مناسب، فأعداد المنتظرين كانت كبيرة، وقلت في نفسي ربما لن أجد لي مكانا بينهم في الحافلة، فشيخ مثلي لا قدرة له على المزاحمة، وعلى الاحتكاك بالأكتاف مع الآخرين، للظّفر بمقعد في حافلة لنقل المسافرين.

راودتني فكرة العودة إلى البيت وإطعام القطّة وصغارها والجلوس لمشاهدهم، وتأجيل زيارتي إلى الشّيخ لمنوّر إلى اليوم الموالي، لكني خفت أن أخيّب ظنّ سليمان، الذي أوكل لي مهمة أن أسلّم الشّيخ بعض زيت الزيتون، وأجلب من عنده لترين من حليب البقر، فألزمت نفسي شرط المحاولة، وأن أجرّب المزاحمة للرّكوب، وليتني لم أفعل، فما إن وصلت الحافلة الصّفراء، حتى سمعت صوت القابض، وهو يخرج رأسه من النّافذة الأمامية، يصرخ عاليًا في وجوه المسافرين:

- واحد وراء واحد يا جماعة.. ما تعملوش مشاكل!

كما لو أنه كان يترجّاهم تنظيم أنفسهم. لكن، مباشرة، ما إن توقّفت الحافلة، حتى التف جميعهم حول باب الصّعود، هجموا، نسوة ورجال وأطفال، على الحافلة، كما لو كانوا قططًا جائعة تهجم على شريحة شحم، وتداخلت أصواتهم فيما بينها:

«أسمع بالعقل.. بالاك!.. بالشوية!.. ردّ بالك المـرأة راهـي كبيرة!.. يدي!.. زيد لهيه!.. ما تْطبعش!..»

وسط تلك الزّحمة وجدت نفسي منجذبًا، إلى الأمام، بين تيار المتدافعين، أحدهم كان يدفعني من الخلف بكتفيه، ووصلت إلى باب الحافلة وصعدت بفضل تدافع المتدافعين، لكن حظّي كان سيئًا، لم أجد مقعدًا واحدًا شاغرًا.

قضيت ثلاثين كليومترا واقفًا في الحافلة، أحمل قفّة في يدي اليمنى، وُضعت فيها ثلاث قنينات زيت زيتون، وبيدي اليسرى أعدّل شاشي المُتدلي، الذي لبست معه قميص صوف وصدرية وسروالا عريضًا، أو «سروال عرب» كما يُسمى عادة، وأنا أحاول تخيّل وجه إيزابيل وهي تركب حصانها الأشهب، تغازله تارة وتعنفه تارة أخرى في تنقلاتها، قبل حوالي القرن، إلى الزّاوية الريحانية، أو عندما كانت تركب صهوته خلف سليمان أهني وهي تطوّق خاصرته بذراعيها الطويلين، وتوشوش في أذنه اليسرى حكايات وأحجيات بذيئة وأخرى عاشقة، على طول الطّريق إلى تلك الزّاوية التي ربطتها علاقة حميمة بها.

في الطّريق، من وسط المدينة إلى قرية زاوية الرّيحانية، لا شيء يُزاحم الخلاء، كانت أرضًا رملية تمتدّ أمام النّاظر، تشوّهها أحيانا بعض النّباتات العشوائية والشّوكية، لا بشر يمرّ من هناك إلا نادرًا، لا أثر لدابة، أو لفرضية تمدّد عمراني قادم. أحسست كما لو أنني أقطع الطّريق ذاتها للمرّة الأولى، رغم أني خبرتها طيلة ثلاثين عامًا. كانت حافلة نقل المسافرين، المتمايلة في سيرها، وحيدة في طريقها، مرّت بالقرب منها سيارة أو سيارتان، على ما أذكر، كانت تسير ببطء متوجّس، كما لو أنها كانت تتّجه نحو تخوم الفراغ، فعلى طول بضع كيلومترات، بدت لي الحياة كما لو أنها انتهت، وأن العزلة قد فرضت سلطتها على المنطقة، الرّكاب أمامي كانوا يخفضون رؤوسهم، ويثرثرون بأصوات خافتة، وأنا مضغوط بين راكبين واقفين، وأسفلي كانت تجلس امرأة بنقاب أسود، يغطي كامل جسدها، وترتدي قفازين أسودين لإخفاء يديها، ولم تعد ملامح الحياة للظّهور مجددًا إلا مع الاقتراب كيلو متر واحد من مدخل القرية، حيث صادفنا دورية عسكرية، ولمحت من زجاج الحافلة عسكريًا يُشير بيده للسّائق بالتّوقّف على اليمين.

صعد جندي، يحمل كلاشينكوف على كتفه، كان يبدو من ملامحه في العشرينيات، أسمر ومتوسّط القامة، يشبه مراد، شقيق مليكة الأكبر، أنزل راكبين كانا يقفان في المقدمة، ووقف مكانهما في

الدّاخل، أطلّ على وجوه الرّكاب صامتًا، مدّ عنقه قليلا نحو الدّاخل، كما لو أنه كان يبحث عن شخص ما، من دون أن ينطق بكلمة، ثم طلب من راكب متوسط العمر كان يجلس في المقعد الأمامي، بالقرب من السّائق، بطاقة هويته، تفحّصها وأعادها إليه، ونزل وسمح للراكبين بالصّعود مجددًا بإيماءة من رأسه، ثم أشار للسّائق بمواصلة المسير.

غالبية الرّكاب نزلوا في الموقف الأول، بالقرب من المدرسة الابتدائية الوحيدة الموجودة في القرية، بينما واصلت أنا، برفقة ثلاثة ركاب آخرين، الطّريق إلى الموقف الثّاني والترمينيس، حيث نزلت لأواصل طريقي مشيًا، صاعدًا إلى تلّة، كان يوجد في قمتها مقر الزّاوية الرّيحانية التّاريخية، التي تأسّست أيام الحكم الفرنسي، وفتحت أبوابها لأبناء الأهالي لتعلّم اللّغة العربية وعلوم الدّين، دعمها الأمير عبد القادر برسائل تشجيعية له، ثم أقام فيها حفيد له لسنوات، وذلك بعد تقاعده من الجيش الفرنسي، قبل أن يُسافر إلى دمشق ويموت ويُدفن بالقرب من قبر جدّه، رافقت الزاوية الرّيحانية الحرب التّحريرية عن بعد، فهي لم تتورّط فيها، لم تُطلق رصاصة واحدة صوب عدوّ أو صديق، وظلّت أيقونة في السّلم والدّعوة للتّعايش، في نظر البعض، ومرادفة للخيانة مع العدو، في نظر بعض آخر.

على مدخل الزّاوية، ما تزال اللافتة الخضراء نفسها مُعلّقة، كُتب عليها: «أدخلوها بسلام آمنين»، ولأوّل مرّة، بدت لي الآية نفسها كما لو أنها جملة سيريالية، أو أنها تُخاطب أناسًا آخرين غيري، ولا تُخاطبني. منذ بضعة أيام، لم أعد أشعر بالأمان، ينتابني شعور بأن الأرض ستتحرّك تحت قدميّ في أية لحظة، ويا ليتها تتحرّك،

فالانتظار بات أسوأ من الفاجعة، أن تعيش مُسمّرًا في فكرة واحدة فهذا سيزيد من ضغط العادي عليك، إما أن يحدث ما يجب أن يحدث وينتهي الأمر، وتُطوى الصّحف أو تتوقّف العجلة عن الدّوران وتقوم السّاعة وينتهي القلق.

كانت صلاة الظّهر قد انتهت لتوّها، و«مُقدّم» الزّاوية عبد الله الرّمشاوي يتقدّم مهرولاً نحوي مُرحّبا:

- أهلا بك الحاج!
- أهلا بك سي عبد الله!

قبّل رأسي وأمسك القفّة، التي وضعت فيها ثلاث قنينات من زيت الزيتون، من يدي.

- سيدي لمنوّر صلّى معكم؟ سألته.
- نعم. راه هنا.

أخبرني بأن شيخ الزّاوية الحاج لمنوّر يجلس رفقة واحد من طلبته في المقصورة. دخلنا معًا المسجد الفسيح، المزخرف بآيات قرآنية، المُغطّى كلّه بالرّخام، والمفروش بزرابي حمراء، تركت حذائي أمام الباب الرّئيسي، وذهب المُقدم يدقّ باب المقصورة، المجاورة للمحراب، للإستئذان من الشّيخ وسرعان ما سمح لي بالدّخول، بعدما أعاد لي القفّة.

- تفضّل الحاج. الدّار دارك.

وجدت الشّيخ الحاج لمنوّر، بلحيته المصبوغة بالحنّاء، وعينيه الجاحظتين، يضع طاقية بيضاء على رأسه، يجلس، مستندًا إلى الحائط، وإلى يمينه مراهق، أبيض الوجه وأشقر الشّعر، مُحمرّ الوجنتين، يلبس قشابية بُنيّة، قدّمه لي باعتباره واحدًا من أنجب طلبته في التّجويد،

وعلى أنه نجل صديق له يعمل في شركة بترولية، جنوب البلاد، وعرض عليّ كوب شاي، من إبريق كبير كان موضوعا إلى جانبه، ثم راح يسألني أسئلة سريعة وروتينية:

- كيف حالك سي جوزيف؟ هذي غيْبة. كيفاش راه الحاج سليمان؟ وش راهم الإخوة في المدينة؟ وإمام مسجدكم، واش أخباره؟

كنت أجيب على أسئلته، وأنا أخفض بصري، بترديد: «كلّ شيء بخير. وراهم يبلغوك السّلام»، وأقتصد في الكلمات وفي التّملص من الأسئلة الكلاسيكية.

لم أعرف لحظتها هل عليّ أن أُفاتح الشّيخ لمنوّر في أمر مجيئي إليه، أم أنتظر أن يُغادر المراهق المقصورة! لقد بدا مُتحرّجًا من وجوده بيننا، لم ينبس بكلمة، ظلّ ينظر إليّ شبه مبتسم، ويلتفت للشّيخ عندما يتكلّم. انسحب قليلاً إلى الحائط، كما لو أنه أراد أن يضعني في تواصل حرّ مع الشّيخ، فلم أجد سوى البدء في موضوع زيارتي، كما لو أنه لم يكن موجودًا بيننا.

- تفضّل يا شيخنا. هذه ثلاث قنينات زيت أرسلها لك سليمان. اشتراها من بيت آزواو، الكهل الأمازيغي، كما تعرف هو يأتي بالزّيت من معصرة شقيق له يسكن في بجاية.

تسلّم لمنوّر هدية سليمان له مبتسمًا، كما لو أنّه كان ينتظرها، ولم يُعلّق. وواصلت:

- الحال في البلاد يْخوّف. وش رأيك يا شيخ؟
- ماذا أقول لك يا حاج! البلاد تمشي كشاة عمياء.

هكذا اختصر الحال، بصورة عميقة وبتأفف، فهمت منها حزنه وكآبته مما يحصل، ولم أشأ أن أخوض معه في الموضوع أكثر من ذلك.

- الله غالب! الحال تبدل وأنا أفكر في الهجرة مع سليمان. أرض ربي واسعة.

أخبرته بالأمر بعينين زائغتين وصوت مترهل، والمراهق شاخص بصره صوبي، وانتظرت من الحاجّ لمنوّر ردّة فعل، تعاطفًا معي، أو حركة رمزية مُساندة، تضامنًا مع وضعي النّفسي المتعب، لكن الشّيخ تلقي النّبأ بدم بارد، أو عدم مبالاة، وردّ بعبارة سريعة:

- ربي يسهل!.. واش يدير الميت في يد غساله!

أنا لم أكن ميتًا فعلاً، بل كنت جثّة حيّة.

رغم أن ردّة فعل الشّيخ جاءت مُخيّبة، وغير مقنعة من رجل دين وسيد طريقة صوفية، اعتقدت أنه سيقف موقفًا شهمًا معي، ويُواسي حالي بكلام لائق، إلا أني تجرّعتها من دون توتّر، لم أظهر أمامه ملمحًا مُغايرًا، وقفزت في الدردشة لأسأله عن حال الزاوية، عن الطّلبة الذين يحفظون فيها القرآن ويتعلّمون التّجويد وعلوم الدّين، عن الروّاد والمريدين، الذين يأتون لزيارتها، من مدن البلاد المختلفة، ومن ليبيا ومالي والسينغال، وعن أحوال الدّراسة فيها.. وظلّ الشيّخ لمنوّر يقذفني بإجابات مُطمئنة:

- لابأس! لابأس! الحالة ماشية.

كان كعادته يتكلّم بصوت خافت، وبكلمات متقطّعة، لكن سرعان ما أخذ يتململ برأسه في الحديث، ويطيل الصّمت قبل الردّ عليّ، وشعرت أنه كان يريد أن يُنهي الجلسة في أسرع وقت ممكن.

ربما سمح لي بالدّخول إلى مقصورته، وهو يُجلس إلى جنبه مراهقًا بجسم ممتلئ ومُشتهى، خجلا منّي، ومن صداقتنا التي تمتدّ سنوات، وإلا لم يكن ليفعل ذلك! شعرت بتضايق وتظاهرت برغبتي في الانصراف، للالتحاق بالحافلة، وعدم تضييع صلاة العصر جماعة في مسجد الحيّ. طلب مني البقاء قليلاً، أن أكمل شرب كوب الشّاي معه، مع بعض الحلويات التي أرسلتها واحدة من زوجاته الثّلاث، على أن يُوصلني واحد من مريدي الزّاوية بالسّيارة، إلى وجهتي لاحقًا، لكنّي اعتذرت له، وبدأت أسحب نفسي إلى الخلف، فقام من مكانه، ورافقني إلى باب المسجد، وقبل الانصراف، أخبرني:

- الوضع لا يُبشر بخير. عَسْ روحك. الحالة تخوّف. أفضل أن أحكي لك الأشياء في حينها، ستصلك منّي رسالة قريبًا.
- إذا طالت الأعمار، نلتقي على أرض أخرى يا شيخ. مرحبا بك دائما في داري في فرنسا!

كلمات الشّيخ لمنوّر الأخيرة أثارت في داخلي اضطرابًا، ونسيت أن أطلب منه لترين من حليب البقر، كما كلّفني سليمان. لقد بدا لي غير مرتاح، وهو يردّد كلماته في توديعي بصوت منخفض ونبرة مرتعشة:

- تهلّى في روحك. رُد بالك مليح. تهلّى في روحك يا الحاج.
- إن شاء الله.

هل يمكن أن يكون قد تلقى تهديدات من أنصار حزب العدالة؟ فلطالما أشاعوا عن الزواية الرّيحانية أنها وكر للسّحر والشّعوذة والشّرك بالله، وأنها لم تقدّم شيئًا للوطن، فقد أُغتيل أخ، غير شقيق له، كان يعمل صحافيًا، بعيد الاستقلال مباشرة، بحجّة أنه لم يكتب

مقالا واحدًا في مساندة خطّ المقاومة المُسلّحة، وربما تعود الكراهية ضد الزّاوية بأثر رجعي، وضد ناسها الذين ينعتون أنفسهم بـ «الشّرفاء»، وبأنهم من نسل الرّسول (ص)، المتخاصمون دائما مع أعيان المدينة، وسيكون الشّيخ لمنوّر حينها في الواجهة، ربما يلقى مصيرًا مماثلا لمصير أخيه لا قدر الله!

خرجت مسرعًا، أجرجر خطاي، خافضًا الرّأس، كما لو أني في عجلة من أمري، تفاديًا لملاقاة المقدّم عبد الله مجددًا، تحاشيا لثرثرته ونكته التي لا تُضحك أحدًا غيره، وتجنبًا للخوض معه في أحاديث لا تُسمن ولا تُغني من جوع.

خرجت من الزّاوية، وأنا أستغفر الله وأسبح بحمده، وأفكر في قصّة أختلقها لسليمان، وأن لا أذكر أمامه ما دار من حديث مُشتّت وقلق مع الشّيخ، أن أجد له عذرًا مقنعًا عن عدم جلب بعض حليب البقر، كالقول أنه نفد هذا الصّباح، أو أنني نسيته في الزاوية قبيل الخروج منها.

في الحافلة، على طريق العودة، ظلّت عبارة الشّيخ (البلاد تمشي كشاة عمياء) ترنّ في أذني لدقائق، ثمّ تخيّلت كيف عاشت إيزابيل إيبرهارت في تلك الزّاوية اثني عشر يومًا، بلياليها، دون أن تملّ أو تشعر فيها بغربة. في ذلك الوقت، كانت ترأس مشيخة الزاوية امرأة مُسترجلة مثلها اسمها فاطمة، وينادونها لالّة فاطمة، هي ابنة عمّ الجدّ الثّاني للشّيخ لمنوّر، كانت امرأة قصيرة القامة، قوية الشّخصية، بوجه مسمرّ، بيدين تملؤهما أوشام من الحناء، قليلة الجمال، وصدامية الطّباع، لم تتزوّج أبدًا في حياتها وكانت تُمارس سادية على المقربين منها، خصوصا أبناء عمومتها، الذين كانت علاقتهم بها جدّ متوترة،

كانت ترفض التّصالح معهم، وارتبطت في حياتها بقطّط وكلب صيد أسود، كانت تسميه «الترّاس»، وبحبّ عابر، لم يكتمل، مع إيزابيل، التي بقيت طويلاً تتراسل معها، تكتب لها في كلّ واحدة من رسائلها لها شذرات من حياتها اليومية، من معاركها وخصوماتها ومحن العيش التي كانت تواجهها، وتعدها إيزابيل، من جهتها، في رسائلها، بالعودة إليها والعيش إلى جانبها، ومساعدتها في التّخلص من أبناء عمومتها، الذين حاولوا الإساءة إليها، تشويه سمعتها أمام مريدي الزّاوية وشيطنة صورتها، بإطلاق شائعات عنها، والقول بأن جنيًّا يسكنها، وأنها لا تصلح بأن تؤم النّساء ولا يحقّ لها الحكم وإبداء الرّأي في مجالس الرّجال، لكن رسائلهما ظلّت وعودًا لا أكثر، وجاء ملك الموت واختطف روح لالّة فاطمة، وهي في أواسط الثلاثينيات من العمر، ليفرّق بينهما.

كانت لالّة فاطمة وإيزابيل إيبرهارت امرأتين موعودتين بحبّ صادق وشقيّ، وبوطن مُثقل بالخبث والخيانات، لكنهما ماتتا قبل الأوان.

عادت الشّرطة، هذا الصّباح، للتّحقيق في قضية وفاة جارتنا علجية. توقّفت سيارة البوليس، الزّرقاء والبيضاء، أمام بيت الضّحية، لساعتين أو أكثر بقليل. فتح واحد من الأعوان الباب، وبقيّ متسمرًا أمامه، وظلّ زميل له في ذهاب وإياب، من الدّاخل إلى الخارج، متنقلاً بين الغرف، كما لو كان في استعراض مسرحي، وهو يحمل في يده اليمنى «تالكي والكي» يتحدّث منه كلامًا متقطعًا، ويتحسّس، في كلّ مرة، مُسدّسه على يسار خاصرته.

كنت أتابع المشهد من نافذة الغرفة، وأحاول عبثًا فهم سير التّحقيق، وأتساءل إلى أين وصلت التّحريات، فقد جاءت حادثة وفاة علجية مُفاجئة وصادمة لنا جميعا، لأهلها وجيرانها، وُجدت، قبل أسبوعين، مشنوقة بحبل غليظ، في المطبخ، واعتقلت الشّرطة مباشرة زوجها الميلود، الذي ظلّ يصرخ، لحظة نقله إلى سيارة الشرطة، مُقيّد اليدين:

- ارحموني يا ناس.. أنا خاطيني..

بحسب ما ورد على ألسنة البعض، وما لم يصدّقه سليمان، فإن الميلود قتل زوجته خنقًا، قبل أن يُعلّق جثتها على مشنقة للتّمويه، بعدما راوده شكّ بأنها ترتبط بعلاقة مع شاب ثلاثيني، يمتلك محلاً لبيع المجوهرات، وسط المدينة، ظنّ أنها كانت تتواعد معه وتختلي معه في محلّه.

تركت علجية خلفها طفلين توأم، هاني وأمين، لم يتجاوزا سنّ الثّالثة. في الأشهر الماضية، كنت أرى أخت علجية الصّغرى، وهي يافعة في السّادسة عشرة أو السّابعة عشرة، لا أعرف تحديدًا، تُدعى سعاد، أنحف من مليكة وأطول منها، تأتي صباحًا إلى البيت، بعدما يُغادر الميلود إلى عمله في محطة البنزين، للاعتناء بالطّفلين، بينما تخرج علجية، مرتدية ملحفة بيضاء، وحذاءً بكعب عالٍ إلى وجهة أجهلها. كانت سعاد تجلس، من حين لآخر، أمام عتبة البيت، رفقة الطفلين لملاعبتهما وتسليتهما، مثيرة حولها فضول شباب الحيّ، الذين ما إن يروها حتى يكثروا من الحركة حولها، يهمسون لها، ويحاولون الحديث إليها:

– بَسْ.. بَسْ! يالزينة شوفي فينا.. يالغزال طُلْ علينا..

يرسلون لها قصاصات ورق مع أطفال صغار، يُحاصرونها بعيونهم، ويحاولون الاقتراب من ابني أختها للفت انتباهها، وهي غير مُكترثة لهم، تتجنّب نظراتهم وثرثراتهم المطوّلة بإدارة ظهرها لهم. كانت تبدو خجولة، وجميلة، ارتبطت صورتها في ذهني بشكلها وهي ترتدي تنورة زرقاء داكنة قصيرة وقميصا أصفر، بموتيفات حمراء في منطقة الكتفين، وبشعر أسود وأملس ينحدر إلى وسط ظهرها، مع نهدين بارزين، وساقين أبيضين ناعمين.

في المرّة الوحيدة التي دقّت فيها سعاد باب بيتنا، جاءت، ذات ظهيرة، لتطلب من سليمان ليمونًا، فقد تعوّد أبناء الجيران على طرق الباب، لطلب ليمون أو خبز أو ملح أو سكر أو بهارات أو زيت زيتون، أو أيّ شيء آخر من أغراض المطبخ، ومرّات يطلبون أوانٍ لاستخدامها لما ينزل ضيف عندهم، ثم يعيدونها لنا. في البداية، لم

تعجبني تلك الممارسات، وجدتها عادات تطفلية، مستفزّة، لكني تعوّدت عليها مع الوقت، فالنّاس تعيش على بعضها البعض، ويحصل أحيانا أن يعرف جارك ما يوجد في مطبخك بدقة، وأفضل منّك.

- عمّي الحاج، قالت لك أختي علجية إذا عندكم حبّة «سيترون»؟!

أعطاها سليمان حبّتي ليمون، أحضرهما من المطبخ، وطلب منها أن تبلغ سلامه للميلود.

- يبلغ.. ربي يحفظك!

كانت تلك المرّة الأولى التي أسمع فيها صوتها الهادئ والطّفولي، من خلف الباب، بشكل واضح، فهي لا تتكلم سوى بصوت خافت مع التوأم هاني وأمين، ولم يحصل قطّ أن رفعت نبرتها أو صرخت في وجههما أو في وجه واحد من الطّامحين بشدّة لنظرة منها. كنت أخاف عليها من طيش شباب الحيّ، ومن وقاحة عبد الكريم طيطي، وقلّة ذوقهم في التّعامل مع الفتيات، خصوصا الفاتنات منهن، فقد كنت أُطيل النّظر فيها، في بياض وجهها المسمرّ، وأنا أمرّ من أمام بيت أختها، لأتخيّل فيها وجه علجية، ووجهي أبيها أو أخيها إن وُجدا، كانت تتمتّع بجمال صافٍ يشي بأنه جمال جيني، تتقاسمه عائلة بأكملها فيما بينها.

بعدما غادرت سيارة الشّرطة بيت الضّحية، وتركت حفنة من شباب الحيّ يتجمّعون تحت حائط مُقابل للمكان الذي وقعت فيه الحادثة، مستعرضين سيناريوهات لمحاكمة الميلود، ومقترحين العقوبات التي قد يتلقاها المتهم، من سجن أو قصاص أو حُكم مخفّف عليه، تحسّرت مجددًا على رحيل تلك المرأة، ممشوقة القوام، التي

كانت تسير ملتحفة الأبيض، أسمع وقع كعب حـــذائها العـــالي، ولا أرى وجهها ولا أسمع صوتها. تحسّرت على رحيل علجية، التي كنت بالكاد أعرفها، مثلما تحسّرت على نساء أخريات فقدت الصّلة بهـــن وخسرتهنّ، وضاعوا مني مثلما ضاعت أشياء جميلة كثيرة من حياتي.

أولى الخسائر في حياتي كانت أمي آن لور، تلك المرأة الدّافئـــة، الوقور والشّجاعة، طويلة القامة ونحيفة الجسم، التي تزوّجـــت مـــن أبـــي شارل، الذي كان يكبرها بأربعة أعوام، ويعمل بناءً، وعائلتـــه تُجاور عائلتها، في ضيعة قريبة، بالجنوب الفرنسي، وهي ما تزال في التّاسعة عشرة، أنجبت منه ابنتين وولدين: بريجيت، أوليفيـــي، أنـــا وأختي الصّغرى آغات، لتجد نفسها أرملة في سنّ الثلاثين، بعـــدما مات أبـــي في حادث مرور. خسرتها يوم هجرتها، وهي أرملة، مدّة فاقت العام، وأنا مراهق في الخامسة عشرة، وذهبت للعيش في ديـــر بعيد، بالقرب من مرسيليا، بعدما شعرت بأنها تُراقب كل خطـــواتي وتفاضل بيني وبين أخي أوليفيـــي، وأني صـــرت مثـــل ســـجين في حضرتها، لا تترك فرصة من دون التّعليق على تصرفاتي ونهري ورفع صوتها عليّ، أمام إخوتي وأمام أطفال الجيران، ثم خسرتها يوم رفضت أن أعيش معها في البيت، بعد الحرب، وتركتها لأشـــتري شُـــقّة في ضاحية باريس، وخسرتها مرّة أخيرة ونهائية يوم ماتت، بعـــد عشـــر سنوات من وصولي إلى الجزائر، بسرطان الكبد، وهي مستاءة مـــن خياري بالذّهاب للعيش في بلاد بعيدة عنها، لم تكن تعـــرف عنـــها الشّيء الكثير. فقط لما ماتت أدركت قيمتها، وأدركـــت جهلـــي، فالأمهات مثل السّواقي، لا يُعاكسن التيّار، ولا يغيّرن من طبـــاعهن، لكنهن يحملن في الدّاخل صخبًا وغضبًا قادرين على تغيير مجرى نهـــر

كامل، وصرت كلّ السّادس من أفريل من كلّ عام، أجترّ أحزاني، في يوم وفاتها، أشعل شمعة، في كنيسة المدينة الوحيدة والمتوحّدة، لروحها وأبتلع دموعي، لأنني لم أعش معها ما يكفي، لم أنل منها الودّ والحنان اللازمين، وحين يُحدّثني سليمان عن أمّه زوليخة، التي عاشت حياة خاضعة وشاقّة مع والده بلخير، والتي كانت تحمله على ظهرها صغيرًا، وتركبه معها على البغل لما تذهب إلى السّوق الأسبوعية، لبيع حاجيات وشراء أخرى، أشعر بغيرة وبغربة، ففي ذاكرتي المُتعبة لا أتذكر يومًا تصالحت فيه مع أمّي، التي ظلّت تصرّ على تعليمي طرق الأكل والعيش بشكل أرستقراطي، تعاليم فشلت في الانصياع لها مثل إخوتي، ما بقي عالقًا في ذهني هي فقط الخصومات والهجران وسوء الفهم، رغم أن أختي بريجيت أخبرتني بأن أمي، سنوات الحرب العالمية، كانت تُخبّئ بعض الطّعام في المطبخ، وتقول لأختاي وأخي، الذي كان يُعاني من الرّبو ونوبات ضيق تنفس متكرّرة، أنه نصيبي، وتمنع أيّ كان من الأكل منه، فلربما آتي لزيارتهما على حين غفلة وأجد، على الأقل، شيئا يُدفئ معدتي.

الخسارة الأخرى في حياتي كانت شانتال، جارتنا في الضّيعة، المراهقة كثيرة الحركة، التي لا أذكر منها اليوم سوى ابتسامتها وصوتها العالي وهي تناديني:

- جوزيف تعال!.. جوزيف، العب معي!.. جوزيف اقترب!

لقد افترقنا منذ أكثر من نصف قرن، لكنها ظلّت تزورني في أحلامي، من حين لآخر، رأيتها في منامي قبل أشهر، وكأني التقيتها في هذه المدينة المكتظة بالكوابيس، في بيت لم أستطع تحديد

إحداثياته، رأيت أنها جاءت في هيئتها كمراهقة، بشعرها الأشقر وعينيها الزرقاوين وساقيها الطويلتين، مرفقة بأخيها، الذي نسيت اسمه، وتعرّفت عليّ بسرعة وأخذنا نتحدّث عن الماضي وعن رغباتنا التي لم تتحقّق، بأن أصير مهندسا معماريًا أخطّط لمبانٍ وتصير هي بيطرية.

لست أعرف ماذا حصل مع شانتال: هل عاشت حياتها كما ينبغي؟ هل تخلّت عن البيطرة؟ هل تزوّجت أم لا؟ هل هي على قيد الحياة أم لا؟ ما أعرفه أنها كانت أول فتاة انسجمت معها، تأسّفت أني لم أحفظ تواصلاً معها، يمتلكني أحيانا حنين العودة إلى صباي، واستعادة ماضٍ شكّل بقعة ضوء من حياتي الفرنسية، أناس خسرتهم في التحوّلات الطارئة التي عشتها، أناس كثر مثل جارتنا اللّطيفة كريستين، التي كانت تغدق عليّ بالهدايا في رأس العام، ولا تبخل علي بمنحي الجبن والحلوى، وأنجليك التي عملت لفترة قصيرة ممرضة في حيّ الضّاحية الباريسية، الذي عشت فيه، والذي ربما سأعود إليه، التي كانت تشعرني بالخجل من كثرة تواضعها ولطفها وحسن تعاملها معي، قبل أن أفقد كلّ تواصل معها لما غادرت فرنسا قبل أربعين عامًا.

الخسائر تكبر وتنمو معي. خسائر جسيمة وأخرى صغيرة، لأصدقاء وأحباء، بعضهم هجرته، وبعضهم الآخر هجرني. صرت لا أحزن كثيرًا مثلما كان يحصل معي في السّابق، لكني أشعر بمرارة تسكنني كلما تذكّرت وجوهًا جميلة مرّت في حياتي ثم اختفت.

سليمان، الذي لم يعرف في حياته صديقات، يقول لي:

- اللي فات مات!

وضميري يردّ عليه:

- الصّح هو اللي فات!

هو يكره النّساء، وبالنسبة له كلّهن مُتشابهات ولا يجب الوثوق فيهن، عدا أمّه زوليخة.

- المرأة بنت إبليس. خاطبني.

في نظره كلّ النّساء جئن من طينة واحـــدة، هـــنّ عـــاهرات ومخادعات بالفطرة، وأنا لا أختلف عليه في النّظر لهن كذلك، ولكني أحنّ للواتي عشت معهن لحظات صفاء.

كيف أستطيع أن أبني حياة لي ولا أوسّس لها بمـــاضٍ مرتبـــك عشته بأكثر من وجه! فأنا أعيش دائما بذهنية مُحارب يرفض التّنازل عن بندقيته، حتى في لحظات السّلم. كنت عنيفًا مع نفسي أكثر ممـــا ينبغي، وفظًّا مع الآخرين، وتافهًا، ولكن لم أكن أسوأ من إيزابيـــل، التي كانت أكثر تطرّفًا منّي في علاقاتها مع عائلتها، ومع أمّها تحديدًا، لقد صدمت من أحبوها وصدمتني أيضا يوم قرأت قصّة حياتها المرقّعة بغدر وخيبات من المقربين، لكن معاركها الدّاخلية، ونفورهـــا مـــن بعض أهلها، لم يمنعها في النّهاية من أن تعيش حياتها كما يحلو لهـــا، وتتقلب في الدّنيا الفسيحة بين المرارات وانتهاك المُحرّمات، وتجعـــل خصومًا لها يحبّونها، أكثر فأكثر، يوم رحيلها.

وأنا؟ هل سيذكرني النّاس بخير بعد رحيلي ويحبونني؟

سألني سليمان، بنبرة تائهة:

- أين وصل العمل على اللّوحتين اللّتين تودّ رسمهما؟

من دون أن يسمع إجابة منّي، علّق على حال الطّقس البارد والمُضطرب، وراح يتمتم، وهو يمشي في رواق البيت، متّجهًا إلى المطبخ، كما لو أنّه يُخاطبني، متحدّثًا عن أغراض منزليّة ينوي شراءها من السّوق:

- يلزمنا مصباح صغير للثّلاجة، لقد توقّف مصباحها القديم عن الإضاءة، ربما ثمنه عشرة دنانير أو أكثر بقليل، وسأشتري علبة كبريت كبيرة وقليلا من البخور.

ثم كلّم نفسه عن رغبته في زيارة المقبرة للترحّم على روح والديه، رغم أنّه كان دائمًا ينتقد والده، الذي كان يعنّفه - كما حكى لي - هو وإخوته وأخواته السّت، يضربهم بكفه الخشنة على وجوههم، أو بقضيب أو بأي شيء آخر كان يجده أمامه، ويمنع عنهم أحيانًا الأكل ليوم أو يومين كاملين، عقابًا لهم، لمجرد حماقة صبيانية أو عقوق غير مقصود. قاطعه سليمان في آخر حياته، لم يكن يزوره، ورفض أن يحضر جنازته. كان والده غليظًا معه ومع إخوته وكان مرّات يضرب والدهم أمام أعينهم. ربما سيذهب للترّحم على روحهما، للمرّة الأخيرة، قبل أن نحمل حقائبنا ونرحل!

سليمان بلهوم وُلد سنة 1923، في «عام الجراد»، كما أطلق

عليه النّاس، ففي تلك السّنة، غزا الجراد واحة بوسعادة، لأسابيع، عاث فسادًا في النّخيل وفي بعض المزروعات، وبدل من إيجاد سبيل للتّخلص منه، كان النّاس يصطادونه، بكميات معتبرة، ويأكلونه، بعد شويه على نار هادئة، مقرمشًا، هو الأوسط في ترتيب إخوته، بعد المختار الأكبر، ثم محمد وعبد الله ويصغره عبد الرحيم ووريدة وعائشة. حفظ، في صغره، بعض السّور، نسي غالبيتها، وتعلّم في المدرسة الإبتدائية بعض الأساسيات والحساب، ثم تركها، وعمل في مهن شتى: كحمّال في سوق، في بيع التّمر وفي الحدادة، ثم جاءت الحرب العالمية الثّانية وشارك فيها، لكسب بعض المال ليس إلاّ - كما صارحني - لم تكن تعنيه الشّعارات الكبرى، ولا خطابات السّاسة، ثم تورّط في حرب التّحرير هنا، وواصل حياته بعدها في حرب مع ماضيه، مع أهله، ومع قبيلته إجمالاً، فقد قال لي مرّة:

- أخطأ القدر معي مرتين: أنني ولدت في عام الجراد، وفي قبيلة أولاد عْديل، المتنكرة لأبنائها.

أحيانًا، يبدو لي سليمان رجلاً مُختلفًا، كما لو أنني لا أعرفه. لقد عاش حياة صعبة، في قطيعة مع أهله، متصالحًا مع أمّه ومُتخاصمًا مع والده وإخوته، ورفض الاستجابة لرغبتهم في أن يتزوّج مثل غيره، وجمعتنا الحرب، يوم كان جنديًا في كتيبة تولّيت قيادتها في شرقي فرنسا. كان يُعلمني، وقت الرّاحة، نطق بعض الكلمات بالعربية: «السّلام عليكم!.. خبز!.. جبل!»، ويشرح لي مقاصد الصّلاة، التي كان يؤديها، كلّما أتيحت له الفرصة مع مُجنّدين مسلمين آخرين، من المغرب ومن دول إفريقية زنجية، وأقصّ عليه أنا حكايات لافونتان الشّعرية، حكايات الصرصور والنّملة، الأسد والصّياد، والرّجل

والأفعى. كنّا نقتسم في الخنادق الخبز، أدخّن سجائر «لا كاميل» ويضع هو تحت شاربه «تبغاً»، توقّف عن تعاطيه في السّنوات الأخيرة فقط، ثم قرّبت بيننا حرب الجزائر، يوم وقفنا معًا إلى جانب المجاهدين أو «الفلاقة» كما يسموهم، نقلنا سلاحا ورسائل وآوينا مناضلين وطنيين، جنّبنا بعضا منهم السّجن، لكن الحزب الوطني رفض، بعد الاستقلال، الإقرار بدوره، ولم يحصل على بطاقة مُجاهد، مثل بقية الرّفاق الآخرين، ولا معاشًا ولا مساعدة مالية بسيطة من طرف الدّولة، بسبب وصف أحد قادة المجاهدين له بـ «المُخنّث»، بعدما استفزّه لطف سليمان المُبالغ فيه ورخاوته أحيانا وعدم قدرته على الدّفاع على نفسه، وتوحدّنا على طول العقود الماضية، في مسائل مُهمة، وأخرى تافهة، حتى صار النّاس لا يُفرّقون بيننا، كان الواحد منّا يُمثّل الآخر، أمام الجيران والأصدقاء، دون حرج، عشنا حياة مُتقلّبة، اشترينا مرّة مطعما، بالقرب من محطة نقل المسافرين، سمّيناه «مطعم النّجمة»، لم يستمر المشروع طويلاً، وقمنا ببيعه بعد بضع سنوات، فأنا لم أكن أطيق أن أقضي اليوم بأكمله واقفًا أمام صندوق الحساب، ولم يكن سليمان يتقبّل أوامر الزبائن المزاجية:

- هات الماء.. هات الخبز.. الماكلة حارّة.. جيب الملح.. جيب الهريسة..!!

فشلنا في تجارتنا وتخاصمنا مرّات، وحدث أن ضربته ومارست عليه سلطتي، وشتمته:

- يا كلب!.. يا حقير!.. يا قوّاد!..

سرعان ما كنّا نتصالح، ونعيد الانسجام مع بعضنا البعض، لكني أشعر، مرّات، بأنه يعيش في عالم له وحده، عالم ذاتي، يدخل

إليه، من حين لآخر، كحلزون معتصم بقوقعته، يغلق بابه، يعــزلني عنه، ويرفض التّكلم معي، أو بالأحرى يرفض الردّ على كلامي، أراه شاحبًا وغير مبالٍ بما يدور حوله، ولما يعود إلى حالته الطبيعية، أسأله لماذا تغيّر، فيردّ عليّ بإجابات فضفاضة بأنه لا يذكر شيئًا مما أقــول، أو أنني أبالغ في تأويل تصرفاته. هو سبب وجودي في هــذا البلــد المتمادي في التملّق لنفسه، لقد رفض دعوتي له بــالمجئ للعــيش في فرنسا، كي لا يبتعد عن أمّه زوليخة التي أحبّها كثيرًا، هــي المــرأة الأولى والأخيرة التي أحبّها في حياته، ورضخت أنا لرغبته بالاستقرار معه في هذا البلد الذي لم أنل منه سوى خيبات، وطعنات متواليــة، وربما تهجيرًا قسريًا قريبا، من يعلم!

لا أحد سيفرح بسماع خبر مُغادرتنا لهذه المدينة المُتثائبة أكثــر من الحاج علي، نائب رئيس المجلس البلدي، الذي يدين لي بمبلغ ستّة آلاف دينار، منذ أكثر من سنة وأنا أركض خلفه، لاســتعادة مــالي منه، كمتسوّل، دون فائدة، هو يختلق أعذارًا غير منطقية، لتجنّــب إلحاحي وللتهرّب من دفع الدّين:

- الله غالب يالحاج جوزيف! والله مــا دخلــت الشّــهرية. يتحجج مرّات.

ومرّات أخرى يتحجج بكثرة مصاريفه العائلية، وأحيانا يتجنب مقابلتي. حين أذهب إليه إلى البيت يُرسل لي أحد أبنائــه، محمــد أو خالد أو جلال، ليُقنعني بأن والده غير موجود.

لم أكن لأُبالغ بطلب استرداد الدّين، لــو لم أُلاحــظ ســلوكه الحربائي معي، عاملني كما لو كنت فرنسيًا غنيًا وغبيًا، جاء كــذليل يطلب مالا منّي، دقّ الباب ذات جمعة قبل الصّلاة، ترجّــاني ببضــع

كلمات وقبض مراده ثم أدار لي ظهره، كما لو أن شيئا لم يحصل، لقد سبق أن أقرضت الكثيرين مالاً، من جيران ومن أشخاص لم أكن أعرفهم كما ينبغي، ولم يعيدوا لي ما اقترضوه منّي، لكني لم أتحرّج، أتفهّم وضع النّاس الصّعب وأتغاضى في حالات كثيرة عنهم، لكن الحاج علي أشعرني بأنه لصّ، خطف مني مبلغًا محترمًا، ما يُعادل راتب عامل بسيط، دون أن يقدم أي ردّ للجميل، ولو بكلمة طيّبة واحدة، لا يهم! إيزابيل كانت أسوأ حالاً مني في علاقاتها بمدينيها، كانت تتهرّب منهم، هي وزوجها سليمان أهني، وتخفي وجهها عن أعينهم كي لا تدفع ما عليها من ديون، لكن إيزابيل كانت فعلاً في وضع مادي صعب، كانت فعلاً بحاجة للمال لتعيش ولتأكل خبزًا وتُدفّئ جسدها النّحيف، كانت تتسوّل ولكن بطريقة محترمة. هل كان يمكن لأحد أن يتخيّل إيزابيل إيبرهارت وهي تجلس أمام مسجد وتمدّ يدها للمصلّين وهي تنوح: «لله يا محسنين!.. صدقة لوجه الله!».

كانت تقتات من مقالات تكتبها وترسلها لجرائد، ومن أعمال بسيطة تقوم بها بكسل كبير، وتموّل جنونها ومغامراتها الصّحراوية بالاستدانة من بعض ميسوري الحال، من موظفين وعسكر ورجال دين، وقوّادين يضاجعونها على مضض، لكن لا أعتقد أن دائنيها كانوا يحملون غلاً لها، فهي كانت لطيفة في تعاملها معهم، تُظهر لهم نصف الأنثى من شخصيتها وتخفي نصف الذّكر، تعرف كيف تكسب رضا دائنيها وودّهم، وتدرك كيف تقنعهم بحاجتها للمال، وبحاجتها لعدم ملاحقتهم لها لردّ الدّين.

كما تنازل لها دائنوها عن مالهم، سأفكّر في التّنازل عن ديني للحاج علي، رغم أن قلبي يحمل له غلاًّ، فهذا الحقير، مصفرّ

الأسنان من كثرة التّدخين، يُزعجني كثيرًا، عاملني كما لو أنني أحمق وأنه هو الأذكى والأكثر خبثًا منّي، لست أعرف ماذا فعل بالمال، لم أسأله و لم أتجسّس عليه، ربما دفع به بعض مستحقات العمرة أو الحجّ، فهو كل عام أو عامين يذهب إلى بيت الله الحرام، ليتبوّل على آثامه، ويعود منه كما لو أنه وُلد من جديد، وفي كلّ مرّة يحمل معه هدايا كثيرة لأفراد عائلته فقط، وليس لشخص آخر، يحمل لهم قطع قماش وحُليّ، أما نحن أصدقاؤه فلم يكن يصلنا منه سوى قارورة ماء زمزم، يحملها لنا كما لو أنه كان يحمل كنزًا عظيمًا، ومن كثرة ريائه سكبت قارورته الأخيرة، من عام ونصف العام في المجاري، نافقته بأن أظهرت له سعادة مُصطنعة بالهدية:

- الله يحفظك ويكثّر من أمثالك. قلت له

لكني لم أشرب منها قطرة واحدة، خامرني شكّ بأنه دسّ لي سمًّا، أنا وسليمان، في ماء زمزم، وأنه يريد الكيد لنا.

أظنّه استعان بما استدانه مني لقضاء مصلحة شخصية، أو دينية، و لم يفعل مثل إيزابيل التي كانت تستدين من أجل توفير ما تحتاج إليه من خبز وحشيش ومشروب الأفنستين خفيّة، ذلك المشروب الحادّ والقويّ، الذي كان يحوّلها، في بضع دقائق، من امرأة إلى جنيّة، ويصعد بها إلى جنّة لها وحدها. كانت تسكر وتدخّن الحشيش بشرهة. حكت بحبّ عن لحظة النّشوة بالحشيش أو «الكيف» كما يُطلق عليه النّاس، في مخطوطها الذي أحتفظ به، وكتبت:

«كنت أنظر إلى أطفال يمرون أمام باب البيت الموارب، وأستنشق بعمق سيجارة «الكيف»، أقلّبها بين إصبعيّ، أضغط على عقبها، أعيد استنشاقها وأتمنى أن لا تنتهي».

كانت شرهة للترحال وللجنس السّادي والمازوشي، والتحوّل من دور المُسيطر إلى المسيطر عليها، وفيّة للفافة الحشيش ولقنينة الأفنتسين، التي كانت تحوّل كآبتها إلى فرح خجول، والتي كانت تحملها معها، كما لو أنها غرض من الأغراض الثّمينة، كانت تسرف في شربها، ولو أطال الربّ في عمرها قليلا لحصل لها ربما ما حصل مع ذلك الرّسام المُسمّى فان غوغ، الذي سمعت في الراديو أنه قضى آخر أيامه في شيزوفرينيا وهلوسات بسبب جرعات الأفنتسين التي كان يتعاطها يوميًا.

في سنوات الشّباب، كنت أقتني حاجتي من الحشيش، من حيّ «البدارنة»، قبل أن تهدمه البلدية كليّة، وتفرّق ساكنيه السّابقين على أحياء جديدة، بنتها في ضواحي المدينة، كنت أذهب للبدارنة مع سليمان، الذي كان يرفض شرب الخمر أو التّدخين أو مجرد تجريب طعم لفافة واحدة، لكنه يصرّ على مرافقتي.

- ما نخليكش وحدك يالعميرة. ماكانش الأمان. كان يُخاطبني.

أشتري هناك من باعة يافعين حشيشا، قادمًا من تلال المغرب، أو من حدائق خفية في صحراء البلاد، رائحته زكيّة، وطعم تدخينه يظلّ حاضرًا بين الشّفتين ساعات طويلة، أما الخمر فكان يأتيني من معصرة، تقع في المخرج الغربي للمدينة، أو من بعض السّواح، أو من المغتربين، المقيمين في فرنسا، لما يأتون في زيارات إلى أهلهم. اليوم، تغيّر الوضع كثيرًا، المعصرة توقّفت وبار «الخيّام»، أشهر بارات المدينة، أغلق أبوابه، وسمعت أن صاحبه قد تنقّل للعيش في وهران وافتتح بارًا آخر قبالة الواجهة البحرية هناك، ومحل بيع الخمر

بالجملة غيّر نشاطه إلى بيع الأقمشة، ومع اقتراب الدّور الثّاني من الانتخابات، بدأت حمّى الخوف ترتفع، كل شيء بات يتوقّف على النّتائج التي سيُعلن عنها في اليوم الثاني من الاقتراع، في نشرة أخبار الثّامنة مساءً، حينها قد تغيّر المدينة كلّها شكلها، أو تعود إلى أصلها.

أشعر مرّات أن الزّمن يتوقّف، ثم يعود للاستمرار، مجدّدًا، ولكن بشكل متباطئ. الحياة هنا تتلعثم في حواريالها الثّنائية مع الأمل واليأس، كل شيء يبدو لي غريبًا، كما لو أنني لم أعش فعلا في هذه المدينة الصّادمة أربعين عامًا.

القلق يرتفع وينخفض مثلما يرتفع وينخفض مؤشر الترمومتر، يتمدّد في الجسد، ثم ينسحب، كما جاء بلا سبب، فاسحًا مكانه لتسارع ضربات توتّر جديدة، فأنا أقاوم مزاجي المُتلوّن بالصّبر والنّسيان، أشعر أني خائف لكني لست أدري لماذا، هكذا يبتلعني شعور ثم يلفظني، ولا قدرة لي على تجاوز الأمر سوى بتمنّي غد جديد يحرّرني من كوابيسي، هي جملة أحاسيس تُعيدني إلى ثلاثين سنة خلت، فغداة الاستقلال، ساد الخوف المدينة، خوف يشبه خوفي الآن، كان المناضلون القدامى يتوجّسون من بعضهم البعض، والنّاس يشعرون بخوف من أن يكون أحدهم هدفًا لتصفية جسدية. كان زمن الفرح بعودة الأرض، والخوف من فقدها برصاصة غضب أو ضربة سكين، تسوية لحسابات قديمة.

أترك أعصابي تهدأ قليلاً، وأعود إلى لوحتي عن نصّ ليوميات إيزابيل، أضيف إليها خطين أحمرين متوازيين، ثم أسحب نفسًا عميقا وأمسك بكتاب قصص إيبرهارت وأعيد القراءة، بصوت منخفض ومتأنٍ، كي لا يسمعني سليمان:

«بوسعادة، الملكة الصّهباء، المحروسة بالتّلال البنفسجية، كانت ترتدي حدائقا معتمة وتنام بعشق على الحافة المنحدرة للوادي، حيث ينساب الماء على الحجارة البيضاء والوردية، بانحناء، كتقاعس حلم على الجدران التّرابية الصّغيرة، كانت أشجار اللوز تذرف دموعها البيضاء بفعل مداعبة الرّيح لها.. عطرها الفوّاح كان يحلّق في الفتور الرّخو للجوّ محدثا كآبة رائعة..».

لوعادت إيزابيل إلى بوسعادة اليوم لكتبت شيئًا مختلفًا، فهذه المدينة صارت ملكة صهباء منتهكة الشّرف، تنام على حافة الوادي كي لا تنظر إلى نفسها، ولا ينظر إليها المارّون، أشجار اللّوز فيها يبست أوراقها، وسُلب منها عطرها، وهي الآن تقف على بعد أمتار قليلة من الهاوية، تخاف أن تستقيظ يومًا وتجد نفسها مدينة مخصيّة بلا فحولة.

إنها مدينة مشبّعة بالأوهام وبالسّقطات، تتقلّب حول ماضيها بلا كلل، تنظر، من حين لآخر، لقدرها المطعون، ثم تعود لحاضرها لمواصلة قيلولتها، تأسست زمن الفاطميين، أقام فيها أمازيغ وهلاليون، جاؤوا من الشّام، واحتضنت الفارين من الأندلس، مال قلبها للوليين الصّالحين سيدي سليمان وسيدي ثامر، واسمياها «مدينة السّعادة»، ثم صارت بوسعادة، أُقيمت فيها المآذن وزوايا المتصوّفة وأجراس كنائس وأسقُف معابد يهودية، ثم انقلبت عليهم جميعا وغازلت رسامين وكتّابا، مرّ بها كارل ماركس، حلق فيها بعض لحيته، لكنها لم تتبرّج له كما فعلت مع «أندري جيد»، وصارت حصنًا للعاهرات الشّريفات وفتحت رجليها لقوّادين، ثم تحالفت مع البؤس لتطرد من لا يعجبها ومن لا تعجبها، هذه هي المدينة الصّهباء، التي أقيم فيها منذ أربعين عامًا، أُحبّها مثلما أحبتها إيزابيل، وغيرتي عليها تجعلني أعاتبها وأغضب منها.

هاتف البيت صار لا يرن إلا نادرًا. منذ أسابيع لم يتّصل بنا أحد! أصدقاؤنا، أنا وسليمان، في مدن الجزائر العاصمة ووهران وعنابة وجانيت والأغواط باتوا لا يهاتفوننا، الجيران صاروا لا يدقون الباب لطلب إجراء مكالمة مع قريب لهم في الخارج، أو في واحدة من بقاع البلاد البعيدة، أكاد أعتقد أني أعيش في ديكور فيلم عبثي، ألعب فيه دور بطل مغلوب على أمره، يحرّكه مخرج مبتذل كيفما شاء، وينتقم منه كيفما أراد، إرضاءً لجمهور مُتخاذل، أو ربما أعيش في حلم سيء النّهايات ولا أستطيع الاستيقاظ منه. حلم بدأ قبل أربعين عامًا، كما ينبغي، واستحال إلى كابوس.

أعيش داخل فقاعة وأحدّث نفسي:

- هل صحيح أن الإنسان كلّما تقدّم في العمر ازداد تشبثا بالحياة؟

هو رأي صائب ربما، لكنه لا ينطبق على الجميع، على الأقل لا ينطبق على حالتي، فتشبثي بالحياة يقلّ يومًا بعد الآخر، على عكس سليمان الذي يتصنّع تفاؤلا مبالغًا فيه نوعًا ما، البقاء أو الموت صارا شيئين متشابهين بالنسبة لي، أعتقد أنني عشت بما فيه الكفاية، وراكمت الخسارات والخيبات والحسرات كما يجب، حققت أُمنيات صغيرة، أحلامًا صبيانية سخيفة، وعجزت عن فعل شيء كبير يذكره النّاس بعد موتي، فلا أنا جزائري كما يلزم لجزائري أن يكون، رغم

باسبوري الأخضر، الذي سلّمني إياه وزير الدّاخلية البدين والأقرع، أمام كاميرا التّلفزيون، وهو يبتسم وأنا بلا ملامح، نظير ما وصفه بـ «دوري البطولي» سنوات ثورة التّحرير، ولا أنا فرنسي كما يليق بابن عائلة عريقة تمتد إلى قرون من الزّمن، ولا أعتقد أني سأحقق الشّيء الكثير في هذا العمر الذّليل، وفي هذه الأيام الملبّدة، فقد فجعت من الخطبة الأخيرة لإمام المسجد، في صلاة الجمعة، صار الرّجل فجأة أكثر شراسة من ذي قبل، يتحدّث بلهجة واثقة، وبكلمات جارحة دون أن يُلقي لها بالاً، فبعدما أتمّ الخطبة المحشوّة بآيات رعب وأحاديث تهويل وتحريض على الاكتفاء بالذّات، وقبل أن يُقيم الصّلاة ويوقف حفلة تجييش نفوس الحاضرين كرهًا وحقدًا ضد غير المسلمين، طلب من الجميع، من المصلّين المقرفصين أمامه، والمصليات، اللواتي يقبعن صاغرات داخل حجرتهن الخلفية الضّيقة، أن يرفعوا أيديهم بالدّعاء، وراح يدعو بصوت مبحوح:

- اللّهم أنصر دولة الإسلام، وأجعل بلدك هذا بلدًا مسلمًا وآمنًا، وأعزه برِئيس يُطبّق شريعة الإسلام وكتاب الله وسيرة نبيّك.. اللهم دمّر الكفار تدميرا، وهدّم بيوت من لم يتّبع هدي محمد.. اللهم عليك باليهود والنّصارى أذلّهم وأجعلهم للمسلمين عبيدا..

والمُصلّون يردّدون من ورائه بصوت عالٍ:

- آمين!..

حينها لم أعرف ماذا أفعل!.. هل أُنزل يديّ، وأثير انتباه من يجلس بجانبي، وفضول من حولي؟! أو أتظاهر بالدّعاء معهم، وترديد آمين؟! لم أتقبل نبرة الإمام التي كانت ترتفع كلما كرّر كلمة

«اللّهم»، بقيت رافعًا يداي وأنا اشتمه وأسبّه في داخلي، لقد وصل إلى المنبر صدفة، بعدما أُزيح الإمام السّابق بأمر إداري، بسبب نعته، في خطبة جمعة، للشّباب الذين خرجوا في مظاهرات 5 أكتوبر 1988، بالمتشردين وقُطّاع الطّرق، وقتها جاءت جماعة من الشّباب الغاضب، كانوا ستّة أو سبعة شبان، لست أذكر تحديدًا، وهددوه بالقتل، فجاء سريعا الأمر بإعفائه من مهامه وحُوّل للعمل في معهد تكوين الأئمة: «معهد الحاج السّبتي»، حماية لروحه، وجاء مكانه الإمام الحالي، الذي شارك الشّباب بخطب خشنة في الدّعوة للتّظاهر يوم 5 أكتوبر، وحثّهم للخروج إلى الشّارع لمواجهة أنصار الحزب الحاكم، طرد الموالين للحكومة من المدينة كليّة، وحرق مقراهم وتمزيق صوّرهم، التي كانت معلّقة في دار البلدية وفي قاعة السّينما الوحيدة.

في ذلك اليوم الكئيب، بقيت أنا وسليمان معتكفين في البيت، خوفًا من التّعرض لحادث أو لضرب بالعصيّ أو اعتقال عشوائي، بقينا نتابع تحرّكات القطّة البيضاء الملطّخة ببقعتين سوداوين على وجهها، بين الغرف الأربع والمطبخ والحوش، وملاعبتها لصغارها، ونستمع إلى الراديو الذي كان يبثّ أخباراً من مصر وتونس والعراق، متفاديًا التّعرض كفايّة للأحداث التي كانت تدور في البلد، وننتظر الجديد الذي يصل آذان الجيران.

كان الجو مشحونا بحالتي رعب وارتياب، وقلبي يخفق بشكل متسارع، في وضع ذكّرني بسنوات الحرب التي خضتها وأنا شابّ مندفع ومتهوّر، وخوّاف قليلا، وسليمان يحاول طمأنتي بأن الأمور ستنتهي على خير وأن الشّرطة ستعيد المحتجين، الناقمين على ظروف العيش الصّعبة، إلى بيوتهم.

- الدّنيا فانية وكل شيء يفوت. خاطبني.

كنت أعرف أن تفاؤله كان مزيفًا كالعادة، وبقيت أحاول بلا جدوى أن أجد سببًا للخروج من التوتّر الذي تملكّني. في لحظة من اللحظات، شعرت أنني لا أعرف أهل هذه المدينة الملتوية، شعرت فعلا أني غريب، وأني لا أشبهم، وهم لا يشبهونني، فكّرت أن الأمور لن تنتهي على خير، وأن الغضب سيتمدّد طولاً وعرضًا، وربّما كان سيصلني، ولن أستطيع المقاومة والثّبات، وعجزت، بكلّ جبن، عن تحديد موقف لي:

- هل أساند الشّباب الغاضب أم حكومة الرّئيس، الذي شارك في الثّورة على الاستعمار؟ تساءلت في سرّي.

اختلطت في ذهني الصّور، كما لو كنت تائهًا في أرض لا أعرفها وأسير عكس التّيار، لم أعرف أين هو الحقّ وأين هو الباطل.. كانت الأرض تموج من تحت رجليّ وأنا مستسلم لعجزي، وسليمان يكرّر كلمات وجملا، كنت أسمعها ولكن لا أنتبه لها، كان يحاول أن يبدو شجاعًا، بأن يظهر لي رجولة مشكوك فيها، في يوم اضطربت فيه كل القناعات القديمة:

- ما تقلقش روحك.. نهار ولاّ نهارين ويرجع الحال كما كان..

كان زمنًا عصيبًا، كانت تلك هي الفترة التي أحسست فيها بأن البلد لم يعد هو نفسه، لم يعد كما عرفته، لقد تغيّر وأنا بقيت مرابطًا وممسكًا بأفكاري المستوردة من ماضٍ بعيد. كان البلد يتحرّك وأنا راكد في مكاني، كعاشقة أرهقتها الخيانات.

سمعت أنهم اعتقلوا حمزه، ابن الحاج الصّالح، مُدرّس اللغة

الفرنسية في الثّانوية، بعد أن شارك في عملية اقتحام مركز «سوق الفلاح» التّجاري، وحرق صورة الرّئيس، الذي كان ينعته المحتجّون بـ «الطّاغوت». لكن، بعد بضعة أيام، شاهدته مجدّدًا في الحيّ، يستند إلى الحائط، كالعادة، ويرتشف فنجان قهوة مع الشّباب ويقهقه بصوته الأجش، ويتابع بعينيه حركة كل فتاة تعبر، لم أمتلك جرأة لسؤاله عما حصل يوم 5 أكتوبر، وكيف اعتقلوه ولماذا وعن سبب إطلاق سراحه، وماذا فعلوا معه في المخفر، هل عنّفوه أم لا؟! خوفًا من إثارة حساسية كنت في غنى عنها، حيّيته وحييت المجموعة التي كانت معه ومضيت في طريقي.

- السّلام عليكم!
- وعليكم السّلام عمّي الحاج!

لاحقًا، عرفت أن والده أرسله عند قريب له في مدينة سطيف البعيدة، حيث انتقل للعيش والدراسة هناك، ولاجتياز امتحانات شهادة البكالوريا، ربما لتجنبيه مواصلة الانخراط في نشاط الحركة الاحتجاجية في المدينة، وتفادي السّجن والمتابعات القضائية التي كانت ستؤثر على حياته ودراسته.

الآن، أعتقد أني لم أفهم الشّيء الكثير مما يحدث في هذا البلد، فقد عشت فيه أربعين عامًا، بما يكفي لأفهم أحشاءه وما خلف أحشائه، وما يكفي لأدرك ميوله ومزاجاته، لكن، في النّهاية، وجدت نفسي عاجزًا عن تفسير ما يدور حولي، فالمناضل القديم الحاج محمد الشّريف، الذي قبع في السّجن مع الشّاعر مفدي زكريا، قال لي:

- الماريكان والرّوس هم اللي راهم يخلطو في الحالة في الجزائر، وحابين البلاد تتقلّب.

أما رفيقه الحاج مصطفى، الذي يُقال بأنه هو من يُعيّن ويُقيل رؤساء البلدية، وهو الآمر والنّاهي في المدينة، فقال لي:

- الدولة يحكم فيها ذئاب، لازم يروحو ويخلو مناصبهم للشباب.

وبينهما كنت أرى أعين النّاس وهي تغلي غضبًا وسخطًا وقلقًا وضعف رجاء من المستقبل. وأنا كالأبله أتفرّج، فالأربعون عامًا التي قضيتها في هذه المدينة لم تنفعني في رؤية الأشياء على حقيقتها.

أربعون عامًا قضيتها في التسكع، في مُعاركة نفسي، وفي البحث عن وجه لي، أربعون عامًا مرّت ونار الانتظار تلتهم قلبي ببطء، أربعون هو رقم اللعنات التي لم تفارقني، عشت في عشرية الأربعينيات أصعب أيامي، في الحرب، فقدت أمي وأنا في الأربعين، وأتلفت عمري أربعين عامًا في مدينة تتنكّر لي.

أربعون يومًا قضاها نوح في تأمل الطّوفان، زدها أربعون عامًا في مُصاحبة غرباء ومسح آثار طوفاني بلا فائدة، أربعون يومًا تاه فيها أنبياء في الصّحراء، وأنا أربعون عامًا عشتها بعدهم في عدّ حبّات الرّمل التي غطّت حماقاتي، أربعون عامًا حكم فيها النّبي سليمان أرض الدّيانات وأنا عشت مثلها محكومًا عليّ بالوسواس، اكتشفت إيزابيل إيبرهارت بعد أربعين يومًا من قراري بالبقاء هنا، ثم أكملت قرابة أربعين عامًا أخرى أقرأ لها وعنها وأحاول تخيّل حياتها لو عاشت بجنونها وشغفها حتى الأربعين.

تخيّلت لو أن إيزابيل إيبرهارت كانت حاضرة، لو عاشت معنا تلك الأيام العصيبة، وغطّت أحداث 5 أكتوبر 1988 للجريدة التي كانت تتعامل معها، ماذا كانت ستكتب؟ ربما كانت ستكتب:

«الشرطة تعتدي، بالضّرب وبالرّصاص المطاطي على الشّباب الغاضب..» أو تكتب: «الشّباب يغضبون والشّرطة تردّ عليهم بالعصيّ وبالرصاص وبالقنابل المسيّلة للدموع».

الأكيد أنها لم تكن لتتخلى عن قناعتها في الانتصار للمواطنين، للمدنيين، لمعذبي الأرض، وليس لأصحاب الزيّ الأزرق وأفراد الجيش، ولو كتبت فعلا مقالاً بهذا الشّكل كانت ربما ستُطرد من البلد، كما طُرد صحافيون أجانب، بحسب ما سمعت. فعلا، ربما كانت إيزابيل إيبرهارت ستُطرد من الجزائر، أو تُحاكم أو تُسجن، لو تكلّمت عكس ما يُريد أصحاب الكراسي! كانت ستحمل حقيبتها وتعود إلى مرسيليا أو إلى سويسرا الباردة أو إلى عشيقها التونسي، في المهدية، أو تذهب إلى محبوبها المصري في القاهرة!

لماذا أحزن إذاً لو طردوني بعد أيام من الآن؟

قدري كان سيتقاطع مع قدر إيزابيل، لوعاشت معي في هذه الأيام المشتعلة من جانفي الذي تحوّل إلى أطول شهر من حياتي المتمرّغة في ويلات التّوتر، كانت ستجد نفسها شخصًا غير مرغوب فيه مثلي، كانت ربما ستبكي قليلا ثم تنسى، أما أنا فقد عجزت عن البكاء، جبنت فعلا على أن أبكي وأحرّر شيئا من فجائعي. أشعر بأني جبان، جبان يخجل من النّظر لنفسه، وأني لا أستحق حياة البطولات العابرة التي عرفتها، كمُقاوم للنازية ثم للاستعمار، في شبابي.

- الحاج مُحاد توفى، الدْفينة بعد الظّهر.

أخبرني سليمان، بصوت مُتقطّع، وهو يُغلي ماءً، لتحضير فطور الصّباح، وأنا أتثاءب، وأضع يدي اليسرى على فمي، ونصف مغمض العينين.

لقد سمع بالخبر، حين خرج، باكرًا، لشراء حليب، و لم أعرف لحظتها: هل أبكي قليلاً أم أبتلع دمعي!

الحزن لم يعد ظرفًا عابرًا، بل هو حياة ثابتة أعيشها، ولا أكاد أتصوّر ما تبقّى لي من أيام خارجها.

مُحاد الشّاعر الشّعبي، صاحب أول مخبزة في المدينة، كان رفيقًا طيبًا ورجلا عفُوًّا، كانت تجمعنا جلسات لعبة «السِّيق» التّقليدية، التي تُلعب بأعواد القصب، في أرصفة الحيّ، برفقة جيران لنا، بعضهم رحل للدّار الأخرى، وبعضهم الآخر ينتظر، نتحدث أثناءها في كلّ شيء، في السّياسة والمجتمع، في الماضي وفي الحاضر، وفي النّسوة اللّواتي كنّ يعبرن الشّارع من أمامنا، كنا نقضي ساعات طويلة في تأمل المارّات، ابتداع نكت عنهنّ، التّطفل على خصوصياهن، وتخيّل شكلهن وحجم مؤخراهن من تحت الملاحف التي كانت تلف أجسادهن المتكوّرة، كان مُحاد أكثرنا تغزّلا بالعابرات، يرميهن تارة بأبيات شعر مُرتجلة، وتارة أخرى يتجرّأ على تتبع خطوّات واحدة منهن، محاولاً الحديث إليها، ودعوتها لشرب

فنجان قهوة معه في مقصورة بيته، كان يمتلك غرفة منفصلة عن بقية البيت، لها مدخل مُستقلّ، كان يجرّ إليها أحيانًا عاهرات، قادمات من قرى قريبة أو مدن بعيدة، لمضاجعتهنّ خفية عن زوجته حليمة وعن أبنائه، حدث هذا لما كان ما يزال في مراهقة متأخرة في الأربعينيات من العمر، قبل أن يتخلّى عن متاع الحياة وينصرف، في السّنوات الأخيرة من عمره، بعدما تجاوز السّتين، للتّعبد والزّهد، في المسجد وفي البيت، فكنت لا أراه إلا وهو يحمل سبحة، بحبّات صفراء، في يده، ويردّد أذكارًا دينية، كما إن شِعره تغيّر أيضا، وانتقل من الغزل وتصوير الحسان، إلى مدائح دينية تنشد الرّسول (ص) وتدعو النّاس للعودة إلى طاعة الله والتّمسك بسيرة نبيه. كان يسجّل بعضا من قصائده، في أشرطة كاسيت، ويُرسلها إلى الإذاعة الوطنية، في الجزائر العاصمة، لتبثّها في مناسبات دينية، كالمولد النّبوي أو ليلة أوّل محرم. غيّر الرّاحل، في آواخر العمر، نمط عيشه، لكنه لم يستطع أن يتوقّف عن التّدخين بشراهة، كما كان دائما.

مات مُحاد، ولن أراه مجدّدًا، سمعت من ابنه الأكبر عبد القادر، قبل أيام، أن سرطان القولون اشتدّ عليه، قلّ وزنه جدًّا، وكان يطرح دمًا مع برازه، ويُنقل، تقريبا كل يومين أو ثلاثة أيام إلى المستشفى. أما الآن، بعد أن مات، فلابدّ أنه سيرتاح من مشاق الدّنيا ومن عذابات المرض. كان هزيل الجسد، ليّن العظم، لدرجة أننا كنّا نسخر منه كيف كان يحمل السّلاح في مواجهة الجنود الفرنسيين سنوات الاحتلال. مرّة، علّقت ساخرًا وقلت له أمام بعض الجيران، ونحن نتحلّق حول لعبة «السِّيق»:

- هل أنت من كان يحمل السّلاح، أما هو السّلاح من كان يحملك؟

يومها غضب منّي وخاصمني ووبّخني:

- أنت ما تحشمش يا جوزيف!.. وجهك مغسول بالبول..

مزحة تحوّلت إلى غصّة في قلبـــي، وكادت تعصـــف بعلاقـــة الصّداقة التي كانت بيننا، لو أنني صالحته في صبيحة اليـــوم المـــوالي، ودعوته إلى شاي في «مقهى شالون».

حين وقفت أمام بيت الميت لتقديم التّعازي، لم أُصادف أناسًـــا أعرفهم، فقط بعض الأطفال، من أحفاد المرحوم، ومن أبناء الجيران، في دخول وخروج وجلبة وصراخ، وصوت القرآن ينبعث هادئًا من الدّاخل، رائحة البخور تملأ المكان، ونعش أخضر، أتـــوا بـــه مـــن المسجد، وُضع في رواق البيت.

تقدّمت إلى الأمام ببطء، وأنا لاأعرف أيّ الاتجاهات أســـلك تحديدًا، فلا أحد كان يقف في الخارج لتلقي التّعازي ولا واحد مـــن أبناء الرّاحل قابلني. مشيت بهدوء ثمّ استدرت أولا يمينًـــا، وجـــدت نفسي في رواق ثانٍ أضيق من الأول، يقود إلى غرفة، كانت تصـــعد منها وشوشات، أطللت برأسي ورأيت بعـــض الجـــيران يجلســـون، ويتهامسون فيما بينهم بأحاديث مختلفة، سلّمت عليهم، فردا فـــردا، قبل أن يدخل علينا مصطفى، الابن الأصغر للرّاحل، ويسألنا إن كنّا نودّ شرب قهوة أو شاي، فاتفق المُعزّون على شرب الشّاي، واختفى مصطفى، الذي يحمل شيئًا من ملامح والـــده، بعينيـــه الصّـــغيرتين ووجهه النّحيف وأنفه العريض، وبشرته السّمراء الفاتحـــة، ثمّ عـــاد مُحمّلا بصينية من أكواب الشّاي، ليشـــرع المُعـــزّون في احتســـاء

أكوابهم وفي الحديث عن كلّ شيء، عن جارنا الميلود، الذي حُكم عليه بالسّجن المؤبد بتهمة القتل العمدي، مع سبق الإصرار والتّرصد، لزوجته علجية، عن حال الطّرقات المتردّية في المدينة ومشاكل البلدية، عن اقتراب الدّور الثّاني من الانتخابات، وعن الرّاحل وحياته وشعره، ببعض التّبجيل تارة، والتأفّف من القدر تارة أخرى، كما لو أنهم كانوا غير راضين عن رحيل رجل، كان مريضًا ومتعبًا جدًا، وكلّ العلامات تشير بأنه كان يقف من زمان على عتبات الفناء، رجل كان يشدّه حبل للموت أقوى من الحبل الذي كان يشدّه للحياة.

– كان رجلاً والرّجال قلائل. علّق أحدهم.

أشعر أحيانًا بأن الموت يدنو مني أنا أيضا خطوات، ثم يتراجع، كهرّ متوجّس، يتلمّس شعري الأبيض، ظهري المحدودب ووجهي المتجعّد، ثم يدير ظهره لي دونما استئذان، يذهب بعيدًا، ملوّحًا لي بيديه، بحثًا عن حياة أخرى أكثر طراوة، ليحملها معه إلى عالمه العميق.

كان ذهنّي صافيًا ومتمسكًا بحقّي من كعكة العيش، وأنا أنظر إلى وجه جثمان الحاج مُحاد، بفم مفتوح، وأقول في نفسي:

– ماذا بقي لي لأخسره وألحق بك؟

كنت أمعن النّظرفي الغسّال العجوز، وهو يغطي رأسه بشاش، يضع قفازين أصفرين من الجلد، ويغسل جثمان مُحاد ويحرص على إخفاء عورته بقماش أبيض، يعصر بطن الميّت بلطف، يكثر من صبّ الماء عليه، ثم يدخل يده بين شفتيه، ويمسح داخل فمه. كرّر غسله سبع مرّات، ثمّ طيّب جثمانه ببعض الكافور، وأنا أقف، مع أبناء

الميت، وبعض الجيران، ونُكبّر ونهلل ونستغفر الله، لكن لا أحد فينا ذرف دمعًا.

أتمرّن أحيانًا على مواجهة قدري بإعادة قراءة مقطع من مخطوط إيزابيل إيبرهارت، غير المنشور:

«فشلنا في الحلم هو اقتراب حتميّ من الموت».

هكذا كتبت، ولهذا فقد عوّدت نفسي، وعوّدت سليمان، على الحلم وعلى مجاراة حماقات العيش بكل ما يلزمها من حكمة، مع اختراع حيوات موازية لنا، ندكّ فيها رؤوسنا لعلّ الموت يخطئنا دائمًا كلما فكّر في الوصول إلينا.

بعد صلاة الظّهر، ووصول المشيّعين القادمين من المسجد، حمل شباب الحيّ نعش الميت من البيت، متّجهين به إلى المقبرة، في حيّ «الأقواس»، على المخرج الجنوبيّ من المدينة، بالقرب من جبّانة النّصارى، راحوا يتناوبون في حمله على أكتافهم، وتواريت إلى الخلف مع سليمان، ورحت أردّد مع المشيعين:

«يا الله يا رحمان يا رحيم يا الله.. اغفر لنا وله برحمتك يا الله!».

كنت أتثاقل في خطاي، وأستشعر نفحة برد تمرّ في جسدي، أنظر في وجوه مشيّعين أعرفهم، وآخرين لاأعرفهم، أسمع حسيس الأرجل، وهي تمشي بين وحل تارة وطمي تارة أخرى، حتى وصلنا إلى المقبرة، بعد مرور على أحياء شعبية، وجدنا إمام حيّنا، برفقة رجلين آخرين لم أعرفهما، ربما كانا من أصدقائه أو أقاربه، في انتظارنا، حيث دعا، على عجل، إلى إقامة صلاة الميت خلفه، وانتبهت أنّ وضوئي قد انتقض، بعدما خرجت منّي ريح، لم يكن

الوقت كافيًا لإعادة الوضـــوء، ولم يكـــن المشـــيّعون لينتظـــروني، فاصطففت معهم، كما لو أنني كنت على طهارة، كبّرت أربع مرّات وصلّيت، ثم جلست القرفصاء على مدخل المقبرة أنظر إلى الجمـــع، وهو يتجه بجثمان مُحاد إلى الحفرة التي سيسكنها، وأفكّر في الزاويـــة التي من الممكن أن أرقد فيها لو حصل ومتّ هنا، فالمقبرة قُسّـــمت مربعات، لكلّ واحدة من قبائل المدينة مربع يخصّ أهلـــها، وبـــات البعض، من تشدّدهم، يدفنون موتاهم فوق عظام أحبّة لهم، مـــاتوا قبلاً، كي لا يختلطوا بقبور قبيلة أخرى.

أنا لا أنتمي لأية قبيلة من القبائل، وسليمان تبرّأت منه قبيلتـــه بعدما قطع صلته بأهله، وإن متّ ربما سيدفنونني في منطقة مُحايـــدة، في زاوية ظلماء، لا تصل إليها أدعية الأصفياء ولا صلوات الدراويش والمخلصين.

لومتّ في هذه المدينة، التي تفوح منـــها رائحـــة الوســـاوس، سأضمن على الأقل أن يزورني سليمان في مرقدي، مرّة في الأسبوع أو مرّة في الشّهر، يرشّ ماءً على تربة قبري، ويؤنس وحشتي، لكن لو مات هو قبلي فلن أُلاقي سوى مصير شبيه بمصير إيزابيل، ســـأرحل كلقيط وأُريح العالم منّي واستقر في قبر بارد وعفن وربما بلا شواهد وبلا هوية.

أصوات غريبة ومُتداخلة فيما بينها تتقاطع في رأسي كلّ مساء. أسمع أحيانًا طلقات نار، صرخات نساء، بكاء رضّع، قهقهات، أبواق سيارات، وقع أرجل، عواء ذئاب، نباح كلاب، مواء قطط، نواح عجائز، مناداة باسمي، وضربا على صفائح حديد.. كلّ هذه الأصوات تختلط مع بعضها البعض، لتخلق نشازًا يرنّ في ذهني لبضع دقائق، ثم تختفي فجأة، ليعود مجددًا ثم يختفي، ويعيد الكرّة مرّة أخرى وهكذا..

أمشي في الغرفة، من الباب إلى الخزانة، أخطو خطوة أو خطوتين إلى الأمام ثم أعود إلى الوراء وأنا أردّد في سرّي المثل الشّعبي: «عاش ماكسب، مات ماخلّى!»، أفكر في كلّ شيء وفي لاشيء، أحاول أن أجد حافزًا معنويًا لإتمام لوحيّ الأخيرتين ولا أستطيع، كما لو أنني فقدت الرّغبة في الرّسم، وخنت نذرًا نذرته على نفسي لروح إيزابيل الملعونة، أشعر بكسل، أعمق من كسل قطّي، تتملّكني حالة من القنوط ونزعة في عدم فعل أي شيء، أفكّر فقط في الجلوس أو الوقوف وتأمّل أغراض الرّسم، من أصباغ وقماش، مرميّة أمامي، على الأرض أو على طاولة صغيرة، وأنا غير قادر على الاقتراب منها أو ملامستها.

ذهني يتململ في حالة من اللاجدوى، يترنّح بين الاكتئاب والتوتّر، فقد أضعت تقريبا لذّة الاستمتاع باللّحظة، صرت لاأُطالع الجرائد بنهم، كما في الماضي، أكتفي بقراءة عناوين المقالات أو

أسطر من المقالات لا أكثر، ولا أستمع للراديو إلاّ نادرًا، تنتابني حالة من النّرفزة ولا أستطيع التّعبير عنها كما ينبغي، لا بالكلمات ولا بالرّسم.

اليوم فقط وصلتني الرّسالة التي حدّثني عنها الشّيخ لمنوّر، ورقة صغيرة طوّيت طيتان، أرسلها بالبريد العادي، تسلمتها من ساعي البريد سي أحمد، قصير القامة ذو الشّارب الكثيف، الذي شرب فنجان قهوة، وهو يجلس على عتبة باب البيت، وشكا لي مشاكله في العمل، ضغط الإدارة وسوء معاملاتها له ولزملائه، وحاولت أن أجتهد في الاستماع إليه وفي التّعاطف معه، قبل أن أتركه ينصرف في حاله وأفتح الرّسالة في الغرفة، بعيدًا عن فضول سليمان، وأقرأ فيها كلمات جافّة وباردة:

«بسم الله الرّحمن الرّحيم

نحمد من وهب من نوره القدسيّ، وأبرز من إشراق الضّياء الحسيّ، وأودع مصباح اللّطيفة السّرية، في مشكاة القوة النّظرية، وجعلها كالكوكب الدّريّ، متوقّدة من شجرة مباركة علويّة، لا شرقية ولا غربية، ونصلي ونسلّم على أشرف قائم بدعوة الهداية، وأفضل من أنقذ الأمّة من الضّلالة والغواية، وعلى آله الطّاهرين، وأصحابه وأتباعه أجمعين، وبعد،

لقد سررت بلقائكم الحاج جوزيف، في الزّاوية، من أيام، وكانت لي فرصة للاطمئنان على صحتكم وعلى حالكم وأهلكم. نحن نثمّن روحكم المخلصة، وتفانيكم في العمل ونشر رسالة الزاوية الرّيحانية والدّفاع عنها، ومدّ يد العون لها ولأهلها. ونخبركم أن الوضع في البلاد تغيّر، فمن يعمل اليوم مثقال ذرة خيرًا يره، ومن

يعمل مثقال ذرة شرًا يره، ولسنا نملك سوى الدّعاء والتّضرع لرب العالمين، خالقنا وخالقكم، ليجنّبنا وأهلنا وسائر المؤمنين شرّ البلاء ويهدينا صراط عباده الصّالحين، وآخر دعوانا أن يبعد الله عن عباده طريق المعصية، ويهديكم سبيل التّوبة.

حفظكم الله وحماكم.

العبد الضّعيف لله،

الشّيخ لمنوّر».

طوّيت الورقة، استغفرت الله وسحبت نفسا عميقًا من رئتاي، ثمّ نظرت من نافذة الغرفة إلى الكرمة، التي غرستها قبل ستّة وعشرين عامًا، وذهبت لسقيها قليلا. دنوت منها وتلمّست أوراقها الخشنة، وألقيت نصف دلو ماء عليها. عاشت الكرمة مثلي ومثل إيزابيل، صبورة ومُقاوِمة، تحمّلت العطش والجفاف. كانت تكتفي بأمطار فيفري ومارس، وبالمياه العكرة التي كنت أرميها أنا وسليمان على تربتها، لتُنبت ثمارًا صغيرة منتصف الرّبيع، تكبر وتصير ناضجة وصالحة للأكل في جويلية وأوت. كانت سخيّة معنا، وكنّا بخلاء معها، لكني، عكس سليمان، كنت أهتمّ بها أحيانا وأقلّم أغصانها، وكانت تضايقنا مرّات في الصّيف، وتفتح أغصانها وأوراقها لخنافس وعناكيب وذباب وناموس، يوتّرني طنينها، ولحشرة الزيز، ذات الصّوت الصّاخب، الذي كان يمنع عنّي النّوم، ويثير غضبي ويدفعني، أكثر من مرّة، للتفكير في قطعها والتّخلص منها.

استدرت، وأخذت فجأة في التّنفس بصعوبة، أفتح فمي قدر المستطاع لخطف ما يمكنني من أوكسجين، وأردّد في نفسي:

- يا سيدي الجيلالي، أُلطف بنا.

ربما هو القلق ما صار يمنعني من التنعّم قليلا بلحظات راحة عابرة، لقد هرمت وهرمت معي هواجسي. بعدما قرأت كلمات الشّيخ لمنوّر، تأكّدت أن الخيارات باتت خيارًا واحدًا، وليس أمامي سوى التّفكير في شكل فراق هادئ ومُسالم مع المكان الذي عشت فيه أربعين عامًا. أن أخرج منه بلا ضجيج، ومن دون إثارة شفقة الآخرين على حالي.

إنها عجلة الزّمن المائلة وغير السّوية، التي صارت تدور كما يحلو لها، دونما أن تسألنا أو تبحث عن سبب لتطلب منّا الاختيار، بين السّيئ والأسوأ. نحمل أجسادنا ونسافر بها، داخل الجغرافيا وخارجها، وقليلا ما ننتبه أن للأجساد صلاحية، تنتهي بنهاية الأسباب التي تدعونا للهجرة وللسّفر في ملذات الرّوح وشقائها.

الخسارات أكبر من الانتصارات في هذا البلد، لم أحقّق الشّيء الكثير، لم أنل منه سوى حياة متقطّعة، سعادات بالتّقطير، كما لو أنني كنت أتسوّل حقّي في العيش فيه، لكنها كانت خسارات هادئة، بطعم ناعم وليس حادّ، لم تقصم ظهري، ولم تفرق بيني وبين سليمان «لعميرة»، رغم ماكان يُصيبنا من جفاء، وخصومات متردّدة، يبقى عليّ أن أتحمّلها، وأفكر في نقلها معي أيضا في طريق العودة إلى الضّاحية الباريسية، فلم يعد لي مكان هنا، وأيامي باتت معدودة. هل أرحل وأترك القطّة وحيدة؟ من سيطعمها ويهتمّ بها من بعدي؟ هذا أمر مؤلم، سيحزنني.

- اللي خلق ما يضيّع. يقول سليمان.
- لكن الخالق ضيّعني ويرفض الردّ على دعواتي له. أردّ عليه في سرّي، كي لا أدخل معه في نقاشات ميتافيزيقية لا تنفع.

سأحاول، فيما تبقى لي من حياة قصيرة في هذه المدينة التي تتّسع للحقد ولكراهية الحاضر للماضي، أن ألملم أثمن الأشياء على قلبي، آخذها معي، مع بعض الفتات أحشوه في ذاكرتي، أتجنّب مزيدًا من العثرات ومن المعارك المجهضة مع النّفس ومع أوهامي التي تناثرت من كثرة الانتظار، سأناور نفسي وأقنعها أو أكذب عليها أنني عشت ما كُتب لي على الجبين وزيادة، وأن قدرًا أرحم ينتظرني في مكان آخر، تحت شمس شمالية باردة.

خروجي من هذا البلد قسرًا، كعبد، مغلوب على أمره، متشبّع بولائم الانكسار والفصام، عجز عن تحرير رقبته من وطأة التّمني، يشبه خروج ميتة جافة من ظلمة إلى ظلمة أخرى، بلا جنازة ولا مأتم، سأشيّع نفسي بنفسي، بعيدًا عن الحماقات التي صنعت منّي جنديًا منتشيًا بانتصارات عابرة، ثم رجلاً متكئًا على فتوحات لم تأت، وأرجم شياطيني، منتظرًا موتة ثانية حقيقية وخاتمة لقرابة القرن من الهزّات واللذائذ والاغتصابات النفسية. لست خائفا من الموت ولا من ملائكته، لكني لست مستعدًا له كما يجب لمحارب واجهه أكثر من مرّة، حالي يشبه حال إيزابيل، فالموت لم يكن يُخيفها، بل كانت تخيفها سكرات الموت وآلامه فقط، كانت تريده موتًا رحيمًا وأملسًا وليّنًا وودودًا، فحملها الوادي وجرى الطّوفان بجسدها النّحيل بين الصّخور، عذّبها، نكّل بها وهشّم أضلاعها ثم خطف روحها. ماتت ميتة متوحّشة، ولا شيء يعزّي وحشية القدر الذي ربما سيُصادفني سوى تذكّر نهايتها القاسية، التي جاءت كخاتمة لتمزّقات روحها. أنا أيضًا حملني وادي الانتظار، من أيّام، وسار بي بين ضفتي القلق والخوف، ولا شيء يُنبئ بأن نهايتي ستكون أفضل من نهاية إيزابيل.

سأصبر قليلا وأتبيّن مصيري، وإن لم يتضّح الخيط الأبيض من الخيط الأسود، سأكتب وصيّة، وأضعها تحت وسادتي، وأوصي الشّخص الذي سيتحمّل مشقة دفني بنقل جثماني إلى مقبرة «سيدي بوجمعة» بعين الصّفراء، ودفني على مسافة متساوية من قبري إيزابيل إيبرهارت وصافية كتو، وأن يكتب على شاهدة قبري: «هنا يرقد عبد الله الحاج جوزيف رينشار، المسكون بروح الرّحالة الرّومية».

أحاول التّغلغل بين الأجساد المتزاحمة، والمتشابكة فيما بينها، كسمكة تسبح عكس التّيار، في هذا المجمع التّجاري الإسمنتي الفسيح، المقسّم إلى أروقة ضيّقة، المُسمّى «سوق الفلاح»، أنظر من حولي إلى السّلع والحاجيات المعروضة والمكدّسة، في رفوف وعلى طاولات، وأشتري ما وقعت عليه عيناي وطالته يدي المرتجفة من حبوب جافة، فواكه مصبّرة، توابل ولحوم معلّبة، لست أعرف مصدرها، ومن دون أن أُناقش السّعر، أو أدقّق كثيرًا في تواريخ صلاحيتها، فغالبية التواريخ المدوّنة ليست حقيقية، كما أخبرني سليمان.

- ناس راهي تموت من الماكلة، بصح واحد مايجيب خبرهم.

قال لي.

مع ذلك، لم يحصل أن وقع لي مكروه بسببها، لم يحصل أن أُصبت بإسهال ولا بغثيان ولا بعسر هضم، كما لم يسبق لي أن اتّكلت على نصيحة سليمان: «قبل أن تأكل، أذكر اسم الله!»، كما لو أن تلك العبارة المقدّسة، والمبتكرة بحسب الطّلب، كفيلة بحمايتي من البكتيريا ومن الفيروسات، ومن أمراض خبيثة لاحول لي بها ولا قوة، فقد صرت أنسى غسل يديّ قبل الأكل، أو أتكاسل عن فعل ذلك، وأخلط بأصابعي وبأظفاري المتّسخة أحيانًا بين أكلي وأكل القطّة في البيت، ولا أقول «بسم الله» قبل الشّروع في الأكل ولا «الحمد لله» عند الانتهاء منه.

أتقدّم، ببطء، بين فوضى الصّفوف، والأجساد الواقفة والمتحرّكة. ألتقط حاجيات سجّلتها في قصاصة صفراء، وأخرى لم أسجّلها، وأحاول أن أغلق منخريّ تجنبا لروائح الضراط، والأرجل، والنتانة المتصاعدة بين المشترين من رجال ونساء وأطفال، ومسنين مثلي، وأصمّ أذناي عن لغطهم، ولا أبالي كثيرًا بأعين بعض الفضوليين، الذين ينظرون إلى قفتي البلاستيكية الحمراء، التي كانت تمتلئ بكيس من الدّقيق، وآخر من الفرينة، وعلبتي طماطم، من الحجم الكبير، وسكر وشاي وبهارات وعلبتي فاصولياء وعلبة أناناس وعلبة لحم بقر، وكيس صغير من الكمون وقارورتي زيت عباد الشّمس، فقد اشتريت زيتا أكثر من الحاجة، بعدما بلغتني شائعة في المسجد تتحدّث عن إمكانية انقطاعه في الأيام القادمة، بسبب تذبذب الواردات وشجع بارونات السّوق، الذين يلعبون بأمعاء المواطنين وعقولهم.

- الحكومة راهي ناوية تقطع الزّيت نهارات. سمعت

هم يختصرون كلّ شيء في كلمة «حكومة»، ولا أعرف من هم الأشخاص أو من هم المسؤولين المقصودين من هذه التسمية، المهم، أنا لست مستعدًا لتحمّل زيت زيتون، الذي يستخدمه سليمان، في الغداء وفي العشاء، أكاد لاأطيق مذاقه في المرق أو في خليط البيض بالطماطم الذي أحضّره أحيانا لسدّ الجوع لا أكثر.

خرجت من «سوق الفلاح»، وسرعان ما ابتلعتني فوضى أخرى، في شارع غير مرصوف، تغرق فيه الأرجل في الوحل، وتتطاير منه كلمات بعض المارة من الشّباب:

- اللعنة على ليكيب ناسيونال (المنتخب الوطني)! يصرخ أحدهم

ويردّ آخر:

- اللي ما يحبش لبلاد فليُغادرها!

كانا ربما يتخاصمان حول مباراة في كرة القدم، و لم أفهم جيدًا السّبب، و لم استوعب القضية، فقد توقّفت من زمان عن متابعة الكرة، منذ 1982، يوم فازت الجزائر على ألمانيا في كأس العالم، ثم سقطت في الحضيض، مثلما سقطت أنا في حضيض سوء فهم ما يدور حولي.

واصلت الخطو، بحثا عن سيارة أجرة، فلم أجد. مظهري البائس كشيخ بظهر محدودب، ملفوف ببرنوس أبيض، يحمل قفة مهترئة وممتلئة، لم يُثر شفقة أحد من المارّة، فكرّت في التوقّف عن المشي وطلب مساعدة شاب على حمل ما اشتريته إلى البيت مقابل بعض الدّنانير، ثم تخلّيت عن الفكرة، لم أعد أثق كثيرا في هؤلاء الشّباب، أتوجّس منهم، أرى فيهم شيئا من عبد الكريم طيطي الوقح، أو ربما صرت بارانوياك، أخاف أن يفرّ أحدهم بالقفة، ويتركني أعارك نفسي وأبصق في الرّيح.

تحمّلت الأثقال التي كنت أناوب في حملها، بين اليدين اليمنى واليسرى، أكثر من نصف ساعة، إلى غاية البيت، وقد زادها مشقّة صفعات الرّيح البارد، الذي كان يتسلّل من مسامات وجهي، ويذهب مباشرة إلى نخاع العظام، ليزيد من محنتي، فبرد هذه المدينة الخانعة، المغلوبة على أمرها، لايُشبه برد مدينة أخرى، جاف وحادّ، لايرحم مُسنًا ولا يرأف بحاله، يضغط على أعصاب الجسم وشرايينه. لست أعرف كيف تحمّلت إيزابيل العيش هنا، وكيف قبلت الإقامة في شتاء السّهوب الصّامد في طرقه للعظام اللّينة، وكيف كانت تدفئ نفسها: بالأفنستين؟ أم بشيء آخر؟

هذه المدينة المُجاهرة بخياناتها، تجلس في حجر تلّة تسمى «كردادة»، كان من المفروض أن تلعب دورًا في صدّ الرّياح، لكنها تتخاذل عن القيام بواجبها، وتترك النّاس يتكوّرون حول مدافئ غاز البوتان، والجمر، وتتمنع عن تدفئتهم، هي مدينة منقلبة على محبيها، تماما كما فعلت مع إيزابيل التي ربما كانت تدفئ قلبها بلقاءاتها الحميمة مع الشّيخة لالة فاطمة، في الزّاوية الرّيحانية، حيث كانت تُجالسها كلّ يوم، بعد العصر، تتحدّث معها في الدّين وفي شؤون أخرى، تتبادل معها عناقات وقبلات خاطفة، ثم تعود كلّ واحدة منهنّ إلى ممارسة سيرتها الأولى، إيزابيل في الارتماء في حضن سليمان أهني والسّخرية من قدرها، ولالة فاطمة في تدريس الفقه لنساء مثلها، ومواجهة ذكورية أبناء عمومتها، الذين أرادوا الإطاحة بها من منصب المشيخة، لكنها انتصرت عليهم، وتغلّبت على مكائدهم، واحدًا تلو الآخر، وحرّضت مريدي الزاوية على المتآمرين ضدّها، فاندلعت معركة قيادة بين أبناء عمومة العائلة الواحدة، تدخّلت الإدارة الفرنسية الكولونيالية للتّهدئة من حدّتها، ولم ينالوا من الشّيخة سوى يوم وفاتها بمرض خبيث أو بتسمّم، فلا أحد يعرف تفاصيل موتها المُفاجئ، حيث عيّنوا، قبل جنازتها بساعتين، ابن عمّ لها خليفة لها، هو الجدّ الثّاني للشّيخ لمنوّر، ورموا جثتها في حفرة على هامش المقبرة، بلا شاهد أو إشارة إلى هويتها، ومسحوا اسمها من قائمة شيوخ الزاوية، لكن الألسنة والقلوب ظلّت تحفظ حكايتها، وخصوصا حبّها لإيزابيل أو «الرّومية» المسترجلة، التي زارت قبرها، ثلاثة أيام بعد وفاتها، جلست تواسي وحشتها، وتحاول عبثًا أن تنفخ الرّوح فيها، ثم كتبت في المخطوط الذي وصلني صدفة: «لالة فاطمة

ماتت من يومين. قرأت الفاتحة ثلاث مرّات على قبرها، ثم حدّثتــها عن الغيم الذي غطّى الزّاوية غداة وفاتها، كلا، هي لم تمت، سافرت حيثما يُسافر العشاق الأبرياء، ركبت بساط الحــبّ مــن دون أن تودعني. كما لو أنها كانت تستفزني للحاق بها».

أمسكت الجريدة بيدي اليسرى، ونصف رغيف خبز بيدي اليمنى، وكرّرت سؤالي على عبد الهادي:

- شحال تبيعني لوحة مبروكة؟

مرّة أخرى ردّ عليّ:

- ليست للبيع ياالحاج!

شعرت بأنني صرت ثقيل الظّل معه، لكن لا ضرر من المحاولة، فمن غير المعقول أن أغادر هذه المدينة المغترّة بنفسها من دون تذكار يعيدني إليها، كلما اشتقت إليها في ضاحية باريس البعيدة، ولا شيء يُغريني لأحمله في متاعي، وفي حقائبي التي ستكون ثقيلة بلا شكّ، أكثر من لوحة مبروكة، بورتري تلك الدرويشة الثّلاثينية السّمراء، ذات العينين البنيتين الكبيرتين، والشّعر المنكوش، التي تمطر السّماء على يديها كما يعتقد البعض، وتقبض بسببها، التي حبلت من مختلّ آخر يشبهها، يُدعى العُقلي، كان حين يملّ من التّسوّل والتّسكع، في الطّرقات والحارات، يُضاجعها خلف مزبلة السّوق المغطاة، غير مبالٍ بفضول المارّة، وعيونهم المتلصّصة، الذين كانوا أحيانًا يغطونهما ببطانية أو بستائر بالية، سترا لحميميتهما، ولتجنبيهما أعين الصّغار، حبلت منه وأنجبت طفلاً اختفى في شهره الأوّل، لم تحزن عليه كثيرًا، ولم يعرف أحد هل اختطف أم مات أم ماذا حصل له، وواصلت هي سيرها في التّسكع والتّسول مثل العُقلي، والضّحك بلا سبب مع

الباعة وزبائن السّوق المغطّاة، ورسمها صديقي عبد الهادي وأجاد رسمها، ثم علّق لوحتها في صالون بيته، لتواجه كل زائر بابتسامتها الماكرة والبريئة، وبوجهها المنشرح، وقلادتها الفضيّة المتدليّة على صدرها، ويمتنع عن بيعها أو مقايضتها أو المشاركة بها في المعارض الفردية أو الجماعية.

لست أعرف سبب إصراري على تلك اللّوحة بالذّات، ربما لشعور دفين بالقرب منها ومن شخصيتها التي تمثّل وجها من وجوه المدينة، ربما أنا أيضا كنت درويشًا مثلها من دون علم منّي، لكني أعرف أني لن أجد أفضل منها، ولن أجد أفضل من لوحات عبد الهادي عمومًا، في بوسعادة، فالرّجل طوّر تقنياته الفنية بشكل لافت، منذ عودته، قبل خمس سنوات، من موسكو، هناك حيث درس في كليّة الفنون الجميلة أربع سنوات، عاد منها بتجربة حياتية وفنيّة واسعة، وبقصّة عشق محمومة مع فنانة روسية تدعى إيلينا، أنجب منها طفلة اسمها أناستازيا، وتركها مع أمّها، عائدًا إلى أمّه السّعدية، التي زوّجته، قبل عامين، من ابنة خالته، التي لا تتعدى مواهبها إتقان فنّ العناية بالبيت بشكل فوضوي، كما قال لي.

سليمان لايتفاهم كثيرًا مع عبد الهادي، بحكم انتماء هذا الأخير لقبيلة أولاد كميمس، التي كانت وما تزال قبيلة مُعادية لقبيلة عائلة سليمان: أولاد عديل، هما لا يتكلّمان مع بعضهما البعض، ولا يتبادلان السّلام حتى، عبد الهادي لا يذكر اسم سليمان قطّ، ويُشير إليه في كلامي معه بعبارة «صاحبك»، كما لو أن سليمان بلا اسم، وسليمان ينعت عبد الهادي بـ «الكا.جي.بي»، وكلّما أردت مقابلته والتحدّث إليه أعجز عن دعوته إلى البيت واستضافته، كي لا

أحرج سليمان، وأذهب إليه في بيته، في حيّ «طارق بن زياد»، أقضي ساعات في الدردشة معه في شؤون الفنّ وفي التحريّ على بعض التّقنيات في الرّسم والسؤال عن أدوات مبتكرة يمكن لي استخدامها في عملي، في غرفتي التي حوّلتها إلى ورشة، وهو يردّ عليّ بإجابات متقطّعة، متنرفزة، بحركات يديه، والسّيجارة تكاد لا تفارق شفتيه. لكن، كان لا بد لنقاشاتنا في الفنّ أن تخرج، بين الفينة والأخرى، عن سياقاتها، ونجد أنفسنا في حديث عن حياتنا الخاصّة، عن هشاشتنا، عن شخصيتي الفنانين المنكسرين اللذين يسكناننا، عن خصوماتي الطارئة مع سليمان «صاحبي»، ومقالب الجيران، عن ملبسي ومأكلي ومشربي، وعن حنينه لسنوات موسكو الباردة، التي لم تكن تزرها سوى شمس خجولة على مضض، ولحبيبة قلبه إيلينا، التي يرفض التّنازل عن ذكراها، إنه يردّد اسمها أكثر مما يردّد اسم ابنته التي تخلّى عنها، ويكاد يُخيّل لي أنه متبرئ من فلذة كبده، أو هذا ما اعتقدته عندما علمت باسمها.

- وعلاش سمّيتها أناستازيا؟
- أمّها سجّلتها في البلدية هكذا و لم تسألني. كانت عنيدة. أنا أردت أن أسميها السّعدية.
- كان يمكن أن تسميها أناستازيا السّعدية. قلت له متهكمًا.
- أمّها راسها خشين.

لم يسبق له أن أراني شيئًا من ذكرى حبيبته الرّوسية، ولا علامة مادية عن علاقته بها، لاصورة لها ولا رسالة، ولا أي شيء آخر يدلّ على حبّه لها.

ربما هو لايثق فيّ كفاية ليحكي لي عن حميمياته بعمق.

- الرّوسيات نار ياالحاج جوزيف. يأكلن قلب الرّجل بلا رحمة.

كان يستمتع وهو يسرد لي مغامراته العاطفية، غزواته الجنسية، في موسكو ولينينغراد وكييف، أكثر مما يتكلّم عن معارضه الفنية في الجزائر العاصمة وقسنطينة وبجاية ومستغانم ومدن البلاد أخرى، ويحكي لي، في غالبية الوقت، كيف كان يُضاجع في اليوم الواحد أكثر من فتاة، وسط قارورات الفودكا والويسكي ولفافات الحشيش، ويتسكع في البارات وفي الملاهي، ويطوف من سرير لآخر، وكيف، في الأخير، ظلّ وفيًا لقلب امرأة واحدة، كانت تكبره بعام، درست معه في الكلية نفسها، حبلت منه، في بضعة أسابيع، ثم هجرها بشكل جبان.

- نعم، كنت جبانًا ياالحاج. فررت من حضن امرأة جميلة للعودة إلى مدينة عاقة وقبيحة ومثيرة للاشمئزاز.

اليوم، لم يعد عبد الهادي يُفكر سوى في طريقة للعودة إلى موسكو، إلى سنوات شبابه الممتلئة حبًّا وشغفًا، لكن الأمر ليس سهلا قطعا، ليس من اليسير الحصول على فيزا، وإمكاناته المادية غير مريحة، فهو يعتاش من راتبه البسيط كمحافظ لمتحف المدينة، الذي صار لا يزوره سوى موظفيه وبعض الفضولين وأطفال مدارس غير مبالين.

- أنا نموت في بلاد الرّوس ياالحاج. ما نبقاش عايش في بلاد الجراد.

- الجراد أنقذ يومًا ما آباءك من المجاعة. علّقت ساخرًا.

الرّوسية التي لا أعرفها أكلت قلبه وجعلت منه رجلا ماضويًا، وهذه المدينة الممسوسة بالعداوات، أكلت رغبته في التّحرّر منها.

كان عبد الهادي يسخر مني، كلّما أخبرته بأن إيزابيل إيبرهاردت من أصول روسية، وأن إيلينا، أمّ ابنته، قد تكون من أحفاد عائلتها الكبيرة، أو ربما كانت تعرفها أو سمعت عنها على الأقل.

- إيزابيل عربية أحرقتها الشّمس. ومستحيل تكون من بلاد الزّين. يُعلّق.

بالنسبة له، الرّوسية لا بدّ أن تكون امرأة ممشوقة القوام، حسناء الوجه، ناصعة البشرة، طيّبة العطر، شقراء الشّعر، مُضيئة العينين وناعمة المزاج، فسنوات دراسته في موسكو، التي استفاد منها بمنحة من الدّولة، لم تخل من تجارب على السّرير، ومن نساء متشابهات في جمالهن، فهو يقول عن نفسه مفتخرًا:

- كنت رسامًا في النّهار ونحّاتًا للأجساد في الليل.
- وأنا رسام في النّهار، ونحات للأحزان في الليل. قلت في نفسي.

تركته، بعدما فشلت، ككلّ مرّة في إقناعه ببيعي لوحة مبروكة الدرويشة، وفكرت أن أطلب منه، في المرّة القادمة، أن يرسم لي لوحة ثانية لها، على أن أدفع له المبلغ الذي يريد، وأهديته عددًا من الأشرطة المرسومة القديمة، التي كنت أحتفظ بها في علبة كرتونية، في خزانتي، بعدما صرت متأكدًا أنني لن أحتاج إليها، وغادرته وهو يسرد عليّ، كعادته، رغبته في إنجاز سلسلة رسوم متحركة للأطفال، يجعل لها بطلاً في العشرينيات من العمر، يُسافر مثله إلى موسكو، يقيم في حيّ جامعي رفقة زميلة له، يلتقي روسيين وروسيات ويعيش في بلاد لينين مغامرات ومقالب، ثم انتبهت، وأنا أخرج من بيته،

عائدًا إلى بيتي وصمتي مع سليمان، أن إيزابيل إيبرهارت لم تكن من النوّع المغري فعلا جنسيًا، لم تكن من ذوات النّهود المستفزة، المنتصبة بغنج، ولا من صاحبات المؤخرات المتكوّر والرّاقصة كمؤخرات النائليات، كانت شابة بجسد نحيف يفتقر للتّضاريس اللافتة وللتكوّرات، بعينين متعبتين، تغطي عبوسهما أحيانًا بالكُحل، ووجه مُبيضّ من كثرة المشي والتّيه في الرّمال وفي المدن البعيدة، كانت تخجل من الحديث عن تجاربها في الجنس أو الكتابة عنها، لم تكن واثقة من نفسها، رغم تعدّد عشّاقها وعلاقاتها، في الجزائر وتونس وفرنسا وسويسر، لكني لا أستطيع تخيّلها سوى نمرة مفترسة في عتمة الفراش، أكثر ضراوة من خضرة بنت الطّاووس، تلحس من شريكها كل ما تريد، وتمنحه ما يُريد، تهبه ما تشاء، وتقتنص منه الأورغازم الذي يُشفي غرورها، فهي لم تكن تقضي أسبوعًا واحدًا من دون شريك، يُقاسمها دفء سريرها ويخفّف من وحدتها، كانت مثل أمها فاطمة المنوبية أو ناتالي دو موردر، تصطاد ما يغري أنوثتها، من الرّجال، وتنتقم بلذة ما تشتهي من النّسوة، كانت ظلاً لنفسها ونقيضًا لها.

كلّ شيء ينهار أمام عينيّ، كقلعة من رمل؛ جسدي وذاكرتي، وبنايات هذه المدينة المنطويّة على نفسها، صرت أشعر بغربة لما أمشي في شوارعها الضّيقة، لم يعد الضّوء الذي ألفته فيها يملأ بصري، و لم تعد الحيطان سخيّة بظلّها كما عرفتها. بيوت قديمة، كان يسكنها رفاق لي، غيّرت من شكّلها، قسّمت إلى شقق صغيرة وسكنها أناس لا أعرفهم ولا يعرفون شيئًا عن الماضي، وعمارات شُوّهت واجهاتها بألوان غريبة، وهُدّمت منحوتات الرّؤوس البشرية التي كانت تزيّن مداخلها. ثمة حديقتان صغيرتان، كان يرتفع فيهما شجر صنوبر، أُزيلتا من وسط المدينة، شغلت مكانهما بوتيكات تجارية، والنّافورة الوحيدة، التي كانت توجد على الطّريق المؤدي إلى الجزائر العاصمة، امّحت وناب عنها تمثال حجري لكبش بقرنين معوجّين.

- دوام الحال من المُحال. قال لي سليمان.

كلّ شيء تغيّر من حولي، كلّ شيء تبدّل لونه أو غيّر جلده، وماتبقى سيتغيّر لا شكّ في ذلك، فلا شيء يعتنق الثّبات غيري، أنا الوحيد الذي مازلت أعيش تحت وطأة النوستالجيا الخائبة، ولذّة العبث بأوراق إيزابيل، أُعيد كلّ يوم ترتيب أشياء ماضية فلا أفلح، أحاول القبض على الوقت فيمرّ متدفقًا من بين أصابعي، يزداد قبحًا أمامي، وأنا ابتسم له كأحمق يعرف سفاهة أمله ولا يجد سبيلا للتخلّص منه.

أعدت، أمس، تقليب صفحات مخطوط إيزابيل، بحثًا عن وجه رجل يشبهني، دقّقت في ملامح الشّخصيات التي كتبت عنها، تلمّستها، ونظرت إليها من الأمام ومن الخلف، لعلي أجد رجلاً أرعن وواهمًا يعكس صورتي! قلت في نفسي: «لعلّها قابلت شخصًا مثلي!» مسكونًا بخساراته وبرغبته في تكرار الفشل وفي الانتقام من نفسه. كنت أوّد أن أعرف ردّة فعلها تجاه أحد ما يُشاركني الشّخصية نفسها، يكون مزاجيًا وحادّ الطّابع وودودا في آن. كيف كانت ستتعامل معي لو قابلتني؟ هل كانت ستقبلني كصديق لها؟ أم كانت ستبصق على وجهي وتمحو رسمي من ذاكرتها؟

لا أحبذ أن تراني على هيئتي اليوم، بشعر مسرف في البياض، وبجسد منهك، ويدين مرتعشتين، لما أرسم أو أكتب أو أطعم بهما القطّة، تمنّيت لو قابلتها لما كنت شابًا، بين نهاية العشرينيات وأواسط الثلاثينيات من العمر، لما كنت بمزاج عسكري، حالم وعبثي، أصفّف شعري بـ «القومينا»، مثل سليمان في شبابه، لما كنت مكتمل المفاتن الرّجولية ومرح الرّوح قليلاً، متعصّبًا لآرائي، وميّالاً للتعرّف على النّاس، ملمًّا بشغفي في اكتشاف الحياة، ومؤمنا بقدرتي السّاذجة على تغيير بعض من وجه العالم القبيح. لو قابلتني إيزابيل حينها كانت ربما ستجعل مني شخصية ورقية في قصصها، كانت ستكتب عني وهي تسحب نفسًا عميقًا من لفافة الحشيش أو تحتسي بعض الأفنستين، تخطّ شيئًا من سيرتي، وتعفيني من قلق أن يكتب شخص آخر عنّي كلامًا لا يليق بمناضل قديم شارك في حرب التّحرير، ومُخلص خدم هذه المدينة بالمال والحبّ، قبل أن تنقلب عليه مثلما انقلبت جونيفياف على عبد الحميد. لقد كنت شاهدًا على قصة

حبّهما، التي بدأت ككلّ قصص الحبّ الوديعة، التي نقرأها في الكتب العتيقة، وانتهت بتراجيديا، بعدما خانت جونيفياف سيرتها وبياضها، وتنكّرت لعشق عبد الحميد لها.

كانت جونيفياف تكبرني بثلاثة أعوام، وُلدت في قريتي، من أمّ ماكثة في البيت، وأب يعمل مُحاميا. كبرت ككلّ البنات من جيلها، هادئة، وميّالة لخوض تجارب جديدة، متخاصمة تارة مع أمها، وتارة أخرى مع أبيها، خصومات طفولية، لا تلبث طويلا، درست ووصلت إلى الجامعة وأتمّت سنواتها في كليّة الهندسة، قبل أن يتحرّك قلبها، وينجذب نحو شاب أشقر، من قرية مجاورة، كان يُدعى أوليفيي، مثل اسم أخي الأكبر، أراد أن يطلب يدها، لكن والدها رفض بحجّة حالته الاجتماعية، فقد كان بلا عمل، ويسكن مع والديه، وإخوته الأربعة، في بيت صغير، مما أشعر أوليفيي بإهانة، ولم يجد شيئًا يخلّصه من شعوره العميق بالأسى سوى الانخراط في الجيش، ليجد نفسه ضابطًا في السينغال، في أرض لم تكن تعرفه ولم يكن يعرفها، مجهولا ضمن آلاف المجاهيل من البيض في أرض أفريقيا، وحاولت جونيفياف التّخلص من قصّتها العاشقة، التي دامت عامين وآلمتها طويلا، بالانخراط في الرّهبنة، لتصير راهبة، منسحبة من حياتها السّابقة، ومبتعدة عن أوهامها بعيش تجربة عاطفية حقيقية، تدحرجت، في لحظة يأس، من حلم رومانسي إلى حياة بالأبيض والأسود، حياة صارمة وضيّقة الآفاق، تختلف كليّة عما عاشته في السّابق، كانت تفكّر أنها باعتناقها الرّهبنة تنتقم من والدها، الذي كان يريد لها حياة أخرى أفضل، لكنها، في الحقيقة، أرضت، بلا وعي منها، أنانيته، فقد وجد في خيارها ذاك سببًا في التّخلص من أهوائها الصّبيانية، كما كان يعتقد.

صارت جونيفياف، طويلة السّاقين وعريضة الكتفين، واحدة من الأخوات البيض، وبعد تدريب دام سنة ونصف السّنة في روما، أُرسلت إلى الجزائر العاصمة، لتلتحق بصاحبات البزّة السّوداء، وتتبنّى نمط عيشهن المضغوط والمطهّر من نزوات الحياة العادية، ثم حوّلت بعد سنوات، رفقة اثنتين من زميلاقما، إلى هذه المدينة العابسة، التي وصلت إليها مثلي بالقطار، بعدي بتسع سنوات، لتعمل في مستوصف، كمساعدة لطبيبين من الآباء البيض، هناك صادفتها، وصافحتها، لأوّل مرّة، كانت ترتدي بذلتها السّوداء الطّويلة، وتغطي رأسها بخمار أبيض، يزيد من بهاء ابتسامتها، وقدّمها لي الأب موريس على أنها من أخلص المجتهدات في المستوصف، وهناك ستُصادف أيضا عبد الحميد، الأربعيني الأسمر والقصير، الذي شدّه إليها بشرقما البيضاء الناعمة، عيناها الزرقاوان، دماثتها، ودفء صوتها.

كان يكبرها بعام واحد، ويعمل ممرضًا، يلتقيها يوميًا في الرّواق أو في قاعة العلاج، ويتعمّد اختلاق أسباب لتحيّتها وللحديث إليها: عن الطّقس، عن الحوادث اليومية التي تحصل في المدينة، عن السّياسة، عن أسعار الخضر والفواكه، عن أمه الطّاعنة في السّن، عن قريبه الذي سافر للعمل في شمال فرنسا، ولم يعد، وكانت هي تردّ عليه وعلى حكاياته بكلمات سريعة ومقتضبة، وتواصل طريقها للإفلات من دردشاته المُطوّلة.

كان يزداد قربًا منها، وتحاول هي التهرّب منه.

شعر بحبل سريّ يشدّه إليها، بميل قويّ نحوها، ظلّ يراوغ نفسه ويتغاضى عن مشاعرها الباردة تجاهه، لأسابيع، كان يعرف أنها راهبة، وصفتها الدّينية تمنع عنها كلّ حماقة، لكنه لم يتخلّ عن رغبته

فيها، طمع في رضا قلبها، وقرّر أن يكون شجاعا، لمرّة واحدة على الأقل، وأن يقول الشّيء الذي سكنه، ترصدّ وجودها لوحدها في قاعة صغيرة، كانت تخزّن فيها أدوية وأغذية، مُجاورة لقاعة العلاج، التي كانت لا تتسع لأكثر من ثلاثة مرضى، وخاطبها:

- بونجور جونيفياف.
- بونجور..
- جونيفياف.. أوّد.. أن.. أطلب يدك للزّواج. قال بتردّد.

اضطربت جونيفياف وحدّقت للحظة فيه. كان الأمْر أشبه بصدمة بالنسبة لها. لم تكن مستعدّة بتاتًا للحظة كهذه، كانت مستسلمة لحياتها كراهبة، عاجزة عن التّفكير في شيء آخر، تلعثمت لثوانٍ، ثم أجابت وهي مطأطأة الرأس:

- أنا متزوّجة من ديني.
- ولكن..!.. من الممكن أن تفكر في الموضوع.. من فضلك! أضاف.
- ...
- رجاءً. سعادتي لن تكتمل سوى معك.
- توجد نساء أخريات، بإمكانهن أن يصنعن سعادتك. يكفي أن تفتح لهنّ قلبك.

ختمت كلامها وانصرفت مهرولة إلى الخارج، وبقيّ هو ينظر إليها من خلف، ولا يصدق فعلاً أنه تجرّأ على قول ما كان يخفيه، وما لا يُقال في حضرة راهبة.

ردّها لم يقنع عبد الحميد، وراح يعيد المحاولة مجدّدًا، مع اليوم الموالي، يترصّد تحركاتها ويكرّر الكلام ذاته، يعيد الكرّة، مرّة تلو

الأخرى، يومًا بعد الآخر، يتحيّن الفرصة ليسألها:

- هل فكرت في الموضوع؟
- أيّ موضوع؟
- أن أطلب يدك..

ظلّت تحاول التّنصل من سؤاله، والهروب من محاصـــرته لهـــا، بالصّمت أو بتجنّب ملاقاته وجهًا لوجه. استمر الأمر كذلك حوالي الأسبوعين، قبل أن يصل للحظة التي أرادها:

- ما هو رأيك في الموضوع الذي حدّثتك فيـــه؟ أنـــا جـــاد جونيفياف!.. امنحيني فرصة ولن تندمي.
- ربما سأفكر في الأمر!

أخيرًا، وجد طريقًا لقلبها، واستطاع، بتكرار محاولاته وطول صبره، أن يقنعها، واستطاعت هي أن تقنع نفسها بالزّواج وبتجريـــب الحـــبّ مجددًا، ومن ثم الانعتاق من دينها، وتتصالح مع ماضٍ ليس ببعيـــد حـــين كانت طالبة، تحلم برجل تحبّه ويحبّها، يُعاملها بلباقة ورومانســـية، لكنـــها اشترطت على عبد الحميد أن تستشير والديها في فرنسا، قبـــل الرّضـــوخ لرغبة له بأن تعتنق الإسلام، وتغيّر اسمها، من جونيفياف إلى جميلة.

بعد زواج سرّيّ، لم يحضره سوى القاضي وثلاثة شهود، كلّهم كانوا من أقارب عبد الحميد، وفي غياب وليّ أمرها، سافرا بـــالبحر من الجزائر العاصمة إلى مرسيليا، ثم بالقطار إلى بـــاريس، أقامـــا في فندق صغير بضعة أيام، وأرسلت جونيفياف رســـالة إلى والـــديها، تخبرهما فيها بأمر زواجها ونيّتها في اعتناق الإسلام وتغـــيير اسمهـــا، ورسالة أخرى للأخوات البيض، في الجزائر، تطلب فيها منهن فـــكّ ارتباطها من العمل الدّيني.

كما توقّعت وتوقّع عبد الحميد، رفضت عائلتها الأمـــر، وردّ عليها والدها برسالة عنيفة وصارمة يهدّدها فيها بســـوء العقـــاب، رسالة كرّر فيها عبارة: «لن أسمح لك!» أربع مرّات، لو أصرّت على فعلتها، وغضبت الرّاهبات من جرأتها على المساس بســـمعة الـــدّين، لتصلّ القضية إلى الشّرطة، بعد شكوى أودعها والدها، وتتمكّن من إلقاء القبض عليها في باريس، ومساءلتها عن حيثيات الأمر وتقـــول، تحت الضّغط، أن عبد الحميد هو من أرغمها على فعل مـــا فعلـــت، وأنه فرض عليها القبول وتوعدّها بانتقام في حال الرّفض.

– هو من فرض عليّ الزّواج به. كرّرت باكية في قسم الشّرطة.

لتنتهي حكايتها، التي بدأت بيسر وثقة متبادلة مـــع محبوبهـــا، بفضيحة بين زميلاتها السّابقات، سمعت بها المدينة كلّها، وبترحيلـــها للعمل في الرّهبنة مجددًا، ولكن هذه المـــرّة في الغـــابون البعيـــدة، في أعماق إفريقيا، في منفى لا يختلف عن منفـــى عشـــيقها أوليفيـــي، وتنقطع أخبارها، ويُطرد عبد الحميد مـــن عملـــه في المستوصـــف، ويُسجن ستّة أشهر، بتهمة «التّحرش والاعتداء على الآخـــرين»، ثم يُهاجر، بعد الإفراج عنه، إلى تونس، لتنقطع هو أيضا أخباره، عـــن عائلته وأبناء عمومته، ولا نسمع عنه شيئًا. ولست أعـــرف، لحـــدّ اليوم، هل هو حيّ أم رحل إلى الدّنيا الأخرى!

أحيانا تراودني فكرة غبيّة بأنه هاجر إلى الغابون للالتحاق بحبيبته جونيفياف! لقد تتيّم بها، وكان مستعدًا لفعل أيّ شيء من أجلـــها، لكنه لم يُفكر قط بأنه سيجد نفسه في السّجن بسبب حبّه لها.

لكن، لماذا انقلبت عليه جونيفياف، و لم تُدافع عن حبّهـــا لـــه وحبّه لها؟

جونيفياف جبنت في لحظة ضعف، انهارت بوقاحة وتخلّت عمن أحبّت في وقت كان يجب أن تتشبّث به! كانت نقيضًا لإيزابيل إيبرهارت، التي لم تُسيء لعشاقها في العلن، و لم تنكّل بهم في السرّ، وكانت شبيها بهذه المدينة المتورّمة بالخيانات، التي عاشت فيها فرحها ومأساها، ولا أستبعد أن جونيفياف ورثت الجبن من المدينة ومن حيطانها وحواريها وظلالها غير الوفية.

لم يبق على رمضان سوى شهرين، ولم يبق لي هنا ربما سوى ثلاثة أيام، ويبدو أنّني سأصوم رمضان هذا العام، بعيدا عن هذه المدينة المحمومة، بعيدًا عن أصواتها وكسلها ونميمتها وكآبتها وخشوعها ولغطها وثرثراتها.

سوف أصوم يومًا أو بعض اليوم، كما كنت أفعل دائما، وأحتفل وقت الغروب، ساعة الإفطار، بمأدبة الأكل، مع سليمان، أتلذّذ بصحون «الشُّربة» والمرق و«الطّجين الحلوّ» بالفواكة المجفّفة، فسليمان يعرف أني لا أطيق الامتناع عن الأكل والشّرب ثلاثين يومًا كاملة، مع ذلك فهو يغضّ الطّرف عنّي، ولا يحرجني، كما كان يفعل في السّابق، بالنّصح والموعظة وترديد الحكم والآيات القرآنية والأحاديث النّبوية، ودائما ما كنت أندمج في مزاج الجيران، أتعامل معهم كما لو أنني كنت مُسلما مُطيعا لقواعد الإسلام الخمس، ملتزمًا بالرّكن الرّابع من الدّين، لا أحد منهم شكّ يومًا في التزامي برمضان، ففي النّهار كنت في الغالب أتفادى ملاقاتهم، أبقى في البيت ولا أخرج سوى للضّرورة، للصّلاة في مسجد الحيّ أو لاقتناء بعض الحاجيات، وفي المساء أجلس في المقهى مع معارف، ألعب معهم لعب «السّيق» والدومينو والورق، أتمنى لهم إفطارًا طيّبا وسحورًا أطيب، وأشتكي لهم من مشقّة الصّيام، ومن إرهاق مُصطنع، خصوصًا في أيام الحرّ، بما يليق بمسلم متأفّف مكتمل الصّفات.

- رمضان ما يقدر على صيامه غير طويل العمر. أقول متأففًا.

قبل سنوات، لما كان رمضان يتزامن مع أيام الصّيف الخانق، أتذكّر أنني اشتريت مرّة ديكا، أحمر وأسود، من سوق الخضر المُغطّاة، وذبحته بنفسي، بسكين اشتريته لهذا الغرض، في حوش البيت، أمام مجرى المياه، ريّشته، ونتفته بيدي، ثم غليّته في الماء، قطّعته وطبخته، وضعته على المائدة لحظة الإفطار، في صحن من فخّار، بشكل شهيّ، مزوّقا ببعض الحشائش، وبأربع قطع ليمون، لكن سليمان امتنع عن الأكل، سحب الصّحن عن جنب، و لم يمدّ له يده، بحجّة أني لم أستدر إلى القبلة لما ذبحت الدّيك.

- هذي جيفة.. حرام.. ما ناكلش!

تنرفز ورفض الأكل كليّة، أثار نرفزتي أنا أيضا وذهب الدّيك المشوي إلى المزبلة، ثم إلى معدّة القطّة، وامتنعت عن الكلام معه ما تبقي من أيام الشّهر الكريم، وفي اليوم الثّاني من عيد الفطر، جاء سليمان بدجاجة بيضاء إلى البيت وذبحها بنفسه، مستخدما السّكين الذي ذبحت به الدّيك، ثم أرسلها لجارتنا الحاجّة خيرة، أخصائية التّوليد، لطهيها، لكني خيّبت ظنّه فيّ و لم آكل منها.

- كُل وحدك.. السّم! أجبته بغضب.

كانت تلك واحدة من الذّكريات السّيئة في علاقتي مع سليمان، بدأت في رمضان وامتدت شهرين أو ثلاثة أشهر، لست أذكر تحديدًا، ومن وقتها توقّفت عن إحضار الطّيور وذبحها في البيت، متجنبًا تلطيخ يديّ بدمها، مكتفيًا فقط بالمشاركة في ذبح أضحية العيد الكبير، التي كان يتكفّل بها واحد من جزّاري الحيّ، أقف للتّفرج عليه ومساعدته قليلا، فأنا لم أتعوّد على الفعلة نفسها رغم

كلّ هذه السّنين، ولا سليمان أيضا تجرّأ على قطـــع رأس كـــبش أو عنزة.

فشلت في الصّيام كما لا يليق بمسلم حافظ لحزب من القرآن، حاجّ لبيت الله، ومواظب على صلاة الجمعة، وفشـــلت في إقنـــاع نفسي بالعمرة في رمضان، وأداء الصّلاة في المسجد الحرم ليلة السّابع والعشرين، التي يُعتقد بأنها ليلة القدر، كما يفعل بعض شيوخ المدينة وأثرياؤها، فبعض منهم اعتمر مرتين أو ثلاثة أو أكثر، لكنني نجحت في تقمصّ الدّور، في كسب ودّ الجيران وسليمان شهرًا من كلّ سنة، وربما سأفعل الشّيء نفسه في فرنسا، أخفي كبائري بسذاجة صبيانية كما كانت تفعل إيزابيل مع زوجها سليمان أهني، تأكل وراء ظهره، ثمّ تقيم صلاة التّراويح بين صفوف الرّجال معه، تـــدخّن في بيـــت الخلاء، في النّهار، وتقتسم الخبز وحساء الشّوربة معه علـــى مائـــدة الإفطار في المساء، هو كان يعلم بأمرها ويتغاضى، وهي كانت تدرك أن إسلامها بات مشكوكا فيه، لكنها أحجمت عن المبادرة لتحسين عباداتها والتّخفيف من آثامها.

هي كانت تشكّ في نفسها، في صدق علاقتها بالسّماء، ولكن لا أحد شكّ في انتمائها للإسلام، ولم يجد خصومها من شيء للطّعن في شخصها سوى اتهامها بالعمالة، اتهامها مرّة بالعمالة للإنجليز ومرّة أخرى بالعمالة للفرنسيين، ومرّة ثالثة بالعمالة للألمان، ومـــن دون أن تنتبه، كانت الألسنة تنقلها من بلد إلى آخر، تنســـبها في الصّـــباح لمخابرات بلد معيّن، ثم في المساء تنقلها لمخابرات بلد آخر، كانـــت بعض النّسوة الغيورات منـــها يوشوشـــن في آذان رجـــالهن بأنهـــا جاسوسة.

- الرّومية الستوتة جاسوسة!.. بنت الحرام سرقت منّا الرّجال..!

لكنهنّ لم يسألن أنفسهن عن ماذا يُمكن لها أن تتجسّس في صحراء يتّسع فيها الرّمل والخلاء والصّمت والبؤس والقنوط! هل كانت تتجسّس على ركود الحيّاة الصّحراوية؟ وكتبت هي في مخطوطها الذي وصل إليّ صدفة، كما لو أنها كانت تردّ عليهن: «حياتي ليست ملكي وحدي، بل هي أيضا ملك الألسنة التي تتكلم عنّي وتدوّن قصصًا مفبركة عن حياتي».

هل يشكّ أهالي المدينة فيّ أنا أيضا؟ هل يظنّون أنني جاسوس؟ مثلما كانوا يشكّون في الرّسام سيء الذّكر إيتيان دينيه؟ لست أعرف، لم يسبق أن قالها لي واحد منهم صراحة، لكن ربما يتحدّثون عنّي في سرّهم بأشياء قبيحة، وينسون في عمق أنانيتهم أني صرفت مالاً وبذلت جهدًا من أجل رجالات الثّورة التحريرية، وأني تصدّقت بنصف ما أملك من مال، عقب الاستقلال، لصندوق الدّولة، للمساهمة في إنعاش الاقتصاد، دفعت مالاً أكثر من قيمة بعض القلادات والخواتم التي تبرّعت بها نسوة ميسورات بعد عام 1962، وبذلت جهدًا للتّأقلم مع الحيّاة التّاعسة والفاترة هنا، وامتنعت، منذ أربعين عامًا عن الاحتفال بعيد القديسين في الفاتح من كلّ شهر نوفمبر، وتغاضيت عن عيد الفصح، وعيد الصّعود، وعيد الخمسين، وانتقال العذراء، وكلّ المناسبات الكاثوليكية الأخرى التي ورثتها من أمي ومن طفولتي في فرنسا، تنازلت عنها، لكن أعتقد جازمًا أن بعض الحمقى يشكّون في إسلامي.

أعرف أن بعض سكان هذه المدينة التي تفتح ساقيها لقوّداين، وغير المستحيّة، يكنّون لي حسدًا، يعتقدون أن الحكومة دسّتني بينهم

للتلصّص عليهم لما ينامون أو يستمنون، أولاد الكلاب يعتقدون أنني من بقايا الاستعمار، وأن الكون يتوقّف عليهم، على زفراهم وأنفاسهم، وأن العالم سيختل بنهايتهم، لكني لن أعير اهتمامًا لوشوشاقم، فقريبا سأرحل، وسيندمون عما راودهم من سوء ظنّ تجاهي أو تجاه سليمان، كما ندموا على وشاياهم في حقّ إيزابيل، فالأزقة والحارات صارت لا تحتمل وقع أقدام الغرباء.

- كلّ من يضرط يشمّ ريحه. يقول سليمان.

النّاس يترصّدون كلّ حركة لشخص يعتقدون أنه لا ينتمي للمدينة، يترصّدون كلّ خطوة لعابر لا ينطق «الغين» قافًا، بلهجة «وْلاد لبلاد» المحلية، يتعقّبونه، ويركضون وراءه، لا يقبلون لغير أبناء هذه البقعة، أو الموالين لها، بالعيش في هدوء نسبي فيها، هم يرفضون كل القادمين وكل المارّين، ومن الممكن أن يضعونني في سلّة واحدة معهم، وينفضوا أيديهم منّي.

- المدينة كلاوها البرانية (الأجانب). قال عبد الكريم طيطي محدّثًا أحد أصدقائه، كما لو أنّه كان يقصدني.

من المُشرّف ليّ أن أخرج منها بمحض إرادتي، في لحظة قوّة لا في لحظة ضعف، حفظًا لكرامتي، قبل أن يتطاول عليّ أحدهم ويرميني خارجًا، ويُطلق عليّ تسمية «البراني» أو الأجنبي، ليصير بطلاً يُصفّق له الجبناء على فعلته.

«كانت ممثلة جذّابة، وامرأة شغوفة بالسّينما»، هكذا اختصر الصّحافي سيرة «جينات لوكلارك»، في مقال مُطوّل في الجريدة اليوم. لكن، صاحب المقال أفرط فقط في مدح شخصها وفي التّغزل بخصالها، لم يذكر شيئًا مهمًا عن أفلامها ولا عن تواطئها مع الاحتلال الألماني، سنوات الحرب العالمية الثّانية، و لم يخض في سنوات الكباري الذي كانت تشرف عليه، مع رفيق لها، الذي كان يجتمع فيه المتعاونون مع الألمان، في باريس.

- لكن ما دخلي أنا بماضيها؟ قلت في نفسي.

لست وصيًّا عليها، فأنا لم أسمع بعلاقتها بالمتعاونين مع الاحتلال سوى من سنوات قليلة، من مقال في جريدة أخرى. هل يجب دائمًا أن أصدّق كلام الجرائد التي تلوّث يديّ بالحبر! لقد تأخّرت الجريدة كثيرًا لتبلغنا هذا السّبت بوفاة جينات لوكلارك، ثم تمدح ماضيها كما لو أنها كانت ملاكًا منزّها من الخطايا، أو نبيّة في مجتمع عصاة.

شاهدتها، مع سليمان، في فيلم بعنوان «زوجة الخبّاز»، في سينما وسط المدينة، في فيلم مثير، حرّك كل أحاسيسي تجاهها، هجرت فيه زوجها الخبّاز وتركته بلا رغبة في تذوّق الخبز الذي كان يصنعه، ثم شاهدتها في التّلفزيون في فيلم آخر، من زمان، لا أذكر تحديدًا عنوانه الآن، يحكي يوميات مفتش شرطة، غضوب ويحمل دائما غليونا بين أصبعي يده اليسرى.

أحببت الفيلمين كما أحببت وجهها الطّفولي! شعرها الأشقر وشفتيها الحمراوتين والمستفزتين، وعينيها العميقتين الجذابتين، واليوم فقط عرفت أنها ماتت! ماتت بالسّرطان مثلما ماتت سينما المدينة الوحيدة بسرطان التّجمعات السياسية التي لا تنتهي، مررت أمامها، هذا الصّباح، وكانت تحتضن تجمّعا شعبيًا لأنصار حزب العدالة. وقفت على رصيف مقابل لها، مع مجموعة من العجائز والمراهقين والفضوليين، وبقيت أنظر، بعينين منبهرتين، إلى شباب الحزب وكلّ واحد منهم يمسك بيد الآخر، ككتيبة من مشجعي كرة القدم، ويهتفون بأصوات عالية ومفزعة:

«الله أكبر! الله أكبر! نصر عبده وأعزّ جنده وهزم الأحزاب وحده».

كانوا يردّدون هذه العبارات وهم يحرّكون رؤوسهم، من الأعلى إلى الأسفل، كما لو أنهم يرقصون رقصة صوفية، وبعد بضع دقائق خفت صوتهم شيئًا فشيئًا، وخرج شاب أسمر، بشعر كثيف ولحية خفيفة، من بين الحشد، كان طويل القامة، يرتدي قميصًا أبيض يصل أعلى كعبيه، بدا لي أنه كان في الثلاثينيات من العمر، وقف أمامهم، رفع ذراعيه إلى الأعلى، وراح يلقي عليهم عبارات، وهم يرددونها من ورائه:

«لا إله إلا الله.. محمد رسول الله!»..

«لا ميثاق لا دستور.. قال الله، قال الرسول!»..

«لا دراسة لا تدريس، حتى يروح الرّئيس!»..

كانت أصوات المتجمّعين عالية، تكاد تشقّ كبد السّماء، وتنفذ عميقًا في آذان الفضوليين الذين توقّفوا لمشاهدتهم، كما لو أنّ المتجمّعين

دُرّبوا فقط للصّراخ وترديد الشّعارات، بقوا كذلك حوالي نصف سّاعة، وأنا أنظر إليهم صامتًا، وأحمل قفة فيها بعض المشتريات، بكثير من الدّهشة، ثم صعدت تلاوة للقرآن من مكبّر صوت، فُتح باب قاعة السّينما، ودخلوا إليها وهم يردّدون مع صوت المقرئ:

«لا إله إلا الله والرّئيس عدوّ الله!».

مشهد الشّباب، وهم يمسكون بأيدي بعضهم البعض، ويردّدون شعارات طغى عليها اسمي «الله» و«الرّسول»، بقيّ عالقا في ذهني، حدّثت سليمان في الموضوع بحماسة، سردت عليه ما رأيت، لكن ردّة فعله كانت فاترة، أخبرني، وهو يحلق ذقنه، في الحوش، أمام مرآة صغيرة، أن الأمر عادي، فهم يحضّرون للانتخابات، وأردف:

- هم على الأقل شباب، المستقبل لهم، نحن كبرنا وهرمنا!
- والكبار ما عندهمش كلمة؟
- زمان كانت عندهم كلمة!

لم أفهم ماذا كان يقصد تحديدًا، لكّني صمتت ولم أجادله في الأمر.

مشاهد التّوحيد والتّكبير التي كانت تقشعر لها أجساد المارّة والفضوليين في الشّارع، وخبر وفاة جينات لوكلارك، لم تكن كافية لأقفل سلسلة المشاهد الدّرامية، كان لا بدّ أن يزداد الأمر تعقيدًا، أن يتعكر مزاجي ويتكدّر يومي مع خطبة الرّئيس في التّلفزيون، في هذا السّبت، الذي بدأ عاديا، لا إضرابات فيه لسائقي الحافلات، ولا لأصحاب المحال التّجارية، لا حركة غير طبيعية في ساحة «أول نوفمبر»، لكنه لم ينته عاديًا، فقد ظهر الرّئيس على الشّاشة، شاحب الوجه، يضع علم البلاد الأخضر والأحمر والأبيض على يمينه، وستة

ميكروفونات أمامه، يرتدي بذلة تشبه تلك التي كان يلبسها حين وصل إلى الحكم، قبل عشر سنوات، بسترة زرقاء داكنة، ربطة عنق سوداء، وقميص أبيض، ظهر وهو يتكلّم بصوت يرتفع وينخفض بحسب الانفعالات، كان يتكلّم كما لو أنه يقف أمام جمهور وليس أمام كاميرا فقط، كما لو أنه هو أيضا تدرّب على إلقاء خطبه، بنفس طريقة أنصار حزب العدالة، كان يُحرّك رأسه، إلى الأمام وإلى الخلف، يلعب بحاجبيه، يرفع إبهام يده اليسرى تارة، وتارة أخرى راحة يده اليمني، كان يخطب أمام كاميرا التلفزيون من دون النّظر إلى ورقة كما تعوّد في السّابق، يتحدّث بلغة وبعينين واثقتين، هو أيضا كان يكرّر كلمة «الله»، ويلحقها بكلمتي «الخطر» و«الخطيرة»، ويلقي بالوعود السّريعة والمبعثرة لحياة أفضل في البلد، ويقتصد في الكلمات، قبل أن يختتم:

- ابتداءً من اليوم، أتخلى عن مهام رئيس الجمهورية..!

جاءت هذه العبارة الختامية لخطابه خاطفة، سمعتها كما لو أنني لم أسمعها، كما لو أنه قالها دون أن يشعر بها، كما لو كانت برقًا سطع فجأة فوق رأسي، تلفّظ بها خارج السّياق، أو قالها ليُنهي ظهوره المسائي المفاجئ في التلفزيون بأسرع وقت ممكن.

كان سليمان، في تلك اللّحظة، يجلس على طرف السّرير، يضع راحتي يديه على ركبتيه، صامتًا، يمدّ رأسه إلى التلفزيون، وأنا أجلس على زربية وأتكئ على الحائط، أنظر إليه وإلى التلفزيون، وأنتظر تعليقًا منه عما قال الرّجل صاحب ربطة العنق السّوداء في خطبته السّريعة، التي لم يُعلن عنها سلفًا، كما جرت العادة مع خطب الرّئيس أشيب الشّعر، حيث كان يُعلن عنها في نشرات الأخبار، في

الصباح وبعد الظّهر، وبين البرامج، وفي فترة الومضات الإشهارية.

ساد الصّمت الغرفة، ثم انقطعت الصّورة. انطلق النّشيد الوطني على الشّاشة، ووقف سليمان، يمسح صلعته بيده اليسرى، ويُتمتم:

- يا سيدي الجيلالي، أُلطف بنا!..

- وش صرا؟ سألته.

- ربــــي يجيب الخير!

ردّ عليّ من دون أن ينظر إليّ، ثمّ مشى إلى المطبخ وسمعته يغلّي ماءً، لتحضير ربما كأس شاي له وحده، من دون أن يعزمني، أو يتفوّه بكلمة واحدة مفهومة معي.

شعرت نفسي «غبيًا» أو «شخصًا غير مرغوب فيه»، لم أفهم لماذا كلّ الأصوات المضطربة والمتزاحمة، بداخلي، صعدت في لحظة واحــــدة، من الباطن إلى الأعلى، وزادتني قلقًا ونرفزة، لم أفهم لماذا قام سليمان من مكانه وخرج من الغرفة، دونما أن يُعلّق بكلمة واحدة علـــى موضـــوع حسّاس مثل هذا. أو إن الأمر ليس بالأهمية التي تخيّلتها؟!

شعرت فعلاً أنني أعيش على هامش التّاريخ، أنني لست فطنــــا، ولا كيّساً، ولا لبيباً، ولا ذكيًا ولا مستوعبًا ما يحدث، أحسست أنني لم أكن حصيفا ولا منتبها ولا واعٍ بما كان يدور حولي، كنت أنظر إلى التلفزيون وأرى العلم يرفرف، والأناشيد الوطنية والثّورية تتوالى، ولا أدرك ماذا عليّ أن أفعل، هل كان يجب عليّ أن أفرح أم أحزن؟ أو أتظاهر كما لو أن شيئًا لم يحصل؟

انتظرت أن يعود سليمان من المطبخ ويقول شيئًا يطمئـــني، أن يقول أن كلّ شيء بخير مثلاً، أن يحدّثني على الأقـــل، أن يشـــعرني بوجوده، أن ينتبه لتوتري، أن يفهم بأني بحاجة لشخص يســـتمع إليّ

ويحدّثني، لكنه لم يأت، شعرت أنني أعيش وسط بيت صامت، وأن الأرض ستفتح فمها وتبتلعني، أعدت تذكّر شكّل الرّئيس وهو يخطب وحاولت تذكّر كلماته فلم أستطع تشفير فعلاً ماذا يعني قوله: «أتخلّى عن مهام رئيس الجمهورية..».

من سيستلم مهامه بعده؟ أين سيذهب؟ وأين سنذهب نحن؟ وأين ستذهب القطّة التي دخلت للغرفة لتتمدّد بكسل أمام المدفئة.

نظرت من حولي، وأنا في حالة أشبه بالمغشي عليه، ربما عشت، بما فيه الكفاية، لكني لم أفهم حياتي، بما فيه الكفاية، هناك حلقات ضاعت منّي، ولن أجد أحدًا ليساعدني على إدراك المبهمات، وقد تكون إيزابيل أيضًا عرفت شعورًا مثل ذلك الذي تملكني، فهي عاشت رحّالة، ومحبّة لهذه الأرض، من دون أن تستوعب تفصيلاتها كما يجب، ولكن ليس من العيب أن نعيش في مكان من دون أن نفهمه على حقيقته، المهم أن نستوعب ما يمسّ يومياتنا وحاجياتنا الصّغيرة، وليس من الضّروري الإحاطة بالقضايا الجماعية، ربما تجنّب سليمان أن يعلّق على كلمات الرّئيس كي لا يُعقد الصّورة في ذهني ولا يزيدها ضبابية، ربما كان على حقّ في صمته وأنا على خطأ في توتري، المهم أني سرعان ما حاولت تجاوز الأمر، وغسل مخيّ من الأفكار المترسّبة، تمالكت على الزّربية وتمدّدت، وضعت وسادة تحت رأسي، أغمضت عينيّ قليلاً، في دفء الغرفة، وطفت صورة الممثلة جينات لوكلارك، بكلّ حسنها، في مخيلتي. أقنعت نفسي بأن الأمور كلّها ستسير على ما يُرام، أن سينما المدينة ستعيد فتح أبوابها للأفلام، وأن الأيام القادمة ستكون أفضل، وأكثر رحمة بنا من الأيام الماضية.

يجب أن أتحرّر من هذه المدينة العانس، أن أسحب جسدي من فتورها، أن أغسل ذاكرتي منها، أن أسقطها من مخيّلتي وأعفي نفسي من الارتباط بها. علاقتي بها تشبه متلازمة ستوكهولم، هـــي تقيّـــدني وتمعن في الانتقام منّي، وأنا أتعاطف معها، وأمعن في التودّد إليها.

في الماضي، كنت أستيقظ صباحًا، بنيّة أن أعيش حياة، برغبة في مصافحة ما يحوم حولي، بأن أتنفّس ألوان بقاء، بأن أشاهد ما يحصـــل أمام عينيّ وخلف ظهري، وأُحادث غيري، بـــأن اســـتمع للضّـــجيج وللصّمت وأرسم وأُمارس هوايتي التي تعلمتها، مع سليمان، طيلة أربعة عقود، في النّميمة والهزل والغضب من أشخاص لا ينســـجمون مـــع مزاجاتي، السّخط من أشخاص آخرين عرفتهم، واختلطت بهم، أمـــا هذه الأيام، فصرت أستيقظ صباحًا بنية التّفكير في الرّحيل أو التّرحيل، لا يهم السّبب! الشّيء الأكيد أنني صرت أعدّ الأيام، أراقب دقّـــات قلبـــي المتسارعة، وأحسب ساعات النّهار، لحزم حقائبـــي والانتقال إلى حيث لا أعرف أحدًا، وحيث لا يعرفني أحد.

- ما يبقى في الواد غير حجاره. يكرّر سليمان.

لقد وصلت إلى هذه المدينة يوم كانت ترابًا وغبارًا، وكانـــت تدكّ أنفها في واحة قريبة، وتتمدّد حولّها، واحة يصطفّ فيها نخيـــل وبعض أشجار الليمون والخوخ والبرتقال والبرقوق، كان يصل إليها سوّاح برغبة الاستجمام والاستلقاء تحت ظلّها، والتّصـــفيق لبناتهـــا

النّاعمات وهنّ يرقصن ويحرّكن أثـــدائهن ومـــؤخراتهن، في كـــلّ الاتجاهات، عشت فيها أثناء فترة لم تكن فيها سوى سيارتين، واحدة لعسكري والثّانية للباشاغا محمد الكبير، الذي أغتيل على يد قريـــب له، سنوات حرب التّحرير، كان وقتها الحصـــان والحمـــار وعربـــة «الكاليش» يمثّلون وسائل النّقل المفضّلة للنّاس، ثم كبرت وكـــبرتُ معها، أنا وسليمان، هي ازدادت شبابًا وأنا هرمت، وفُتحت فيهـــا بقالات ومحلات لبيع الخردوات، ثم مقاه، وفي مرحلة لاحقـــة مـــلاه ومدارس، اشتهرت ببار «قهوة الزّهو» كعبة العشّاق المهـــزومين، ثم صار النّاس يتوافدون عليها، من القرى ومن المدن البعيدة، للعمل في سوقها الأسبوعي، والتّكسب منه، وشيئًا فشيئًا، تركَت الواحة الـــتي ارتبطت طويلا بها، وارتفعت فيها مبانٍ ومنازل وتوسّع فيها الإسمنت ورائحة الحديد الصّدأ، ارتفع فيها صدى الصّـــخب، وازداد وقـــع الأقدام، كثرت فيها الرّؤوس السّوداء والمُغطاة، واختلطت، وصار من الصّعب التّفريق بين ابن البلد والأجنبـــي، وفتحت فيها خمس قاعات سينما، ومرّت أزمنة حرب تحرير صعبة، ثم صارت تعرض في تلـــك القاعات أفلام مصرية، أغلقت كلّها بعد ذلك، وصـــمدت واحـــدة منها فقط، وباتت تُباع في سوقها أسطوانات لنجوم وُلدوا واشتهروا في الشّرق، في تخوم نسمع عنها ولا نعرفها: أم كلثوم وفريد الأطرش وعبد الحليم الحافظ، كلّها أصوات سمعتها في طاولات تجّار السّوق، واقتنيتها من هناك، استمعت إليها في الماضي، ثم وضعتها جانبًا لتنام تحت كومة من الغبار في الخزانة، و لم أعد إليها ثانية، فسليمان يفضل صوت الفنّان الصّحراوي خليفي أحمد، يستسيغ بحّة المغني عبد الحميد عبابسة، وأنا أحنّ لصوتي إديث بياف وجاك بريل.

لست أعرف ماذا سأفعل في فرنسا مستقبلاً، ولست أعرف ماذا ستفعل فيّ!

لقد هجرت بلدي، و لم أعد أعرف عنه شيئًا، مثل إيزابيل التي لم تعرف شيئًا عن بلدها الأصلي روسيا، لست أعرف فعلاً ماذا يحصل وراء البحر، ولا كيف يعيش النّاس، ولا سعر الخبز أو سعر الكيلو غرام الواحد من البطاطا أو السّكر، نسيت حتى شكل صوامع الكنائس، ولكنات البشر في الشّارع، أنا فرنسي بلا انتماء، ليس يربطني بوطني الأم سوى بطاقة هوية، ومن المؤكّد أن لا أحد سيتعرّف عليّ لما سأعود، بما في ذلك أنجليك اللطيفة، التي عرفتها كممرضة، لو مازالت حيّة فإنها لن تتعرّف عليّ، أخي وأختاي، الذين انقطعت عنّي أخبارهم، وأناس قريتي الأصلية، يكونون قد محوا صورتي من ذاكرتهم، و لم يفكروا أني سأعود يومًا، أو أن أفكر في الأرض التي وُلدت فيها بعد أكثر من أربعين سنة من الغياب، لن ينتظرني أحد في المطار بباريس، ولن أجد واحدًا من الأقارب ليساعدني في الاندماج مجدّدًا في الحياة، سأستقل أوّل سيارة أجرة تصادفني أمام مطار «رْواسي»، وأُظهر للسّائق عنوان البيت الذي هجرته، في عمر الشّباب، و لم أنساه، أطلب منه أن يأخذني، إلى شوازي لو روا، في الضّاحية الجنوبية من باريس، لأعيد فتح باب شقّة لم يُفتح من زمن بعيد، ربما ستكون الشقّة في حالة سيّئة، هذا أغلب الظنّ، يعلوها الغبار وتعشش فيها حشرات، سأضطر لسكنها، أنا وسليمان، وهي في حال مُتهالك، ولن تكون بالتّأكيد صالحة للعيش، ربما ستكون شقّة بلا كهرباء ولا ماء، وربما سأضع جيرانها المفترضين في حيرة من أمرهم، وهم يرون شيخين متعبين، فرنسي وجزائري، يدخلان بيتا مهجورًا بلا روح.

- المهم الواحد يُستر رأسه. كما علّق سليمان.

المهم بالنسبة له أن يكون لنا سقف نحتمي به، بعدما فهم أن لا مكانة لنا في مدينة الشّمس التي تلوّنت برايات حزب العدالة، المهم بالنسبة له أن لا نبقى في الشّارع، كفارين من دار للشّيخوخة، بعدها سنفكر في شيء نفعله، في شيء يوفر لنا حياة عادية، سليمان حدّثني عن ضرورة التّفكير في مشروع نحققه هناك لنواصل حياتنا بشكل عادي، ولا نسقط في الرّوتين.

- ممكن أن نفتح كشكا لبيع الجرائد والمجلات. قال

لكنها فكرة ساذجة تبدو لي، لم يعد العمر مناسبًا للتّفكير في مشروعات ربحية أو للتّرويح عن النّفس، لم تعد لي طاقة كافية للتّفكير في أشياء عميقة، ما يدور في ذهني الآن، هو أنني، في الشّهر الأول، الذي أعود فيه إلى شوازي لو روا البعيدة، سأحاول أن أنام لأنسى، وإن لم أستطع أن أنام ولم أتصالح مع الوسادة سأتناول منوّمات، وإن لم أستطع أن أنام باللجوء لمنوّمات سأحاول التسكّع في الشّوارع، وتفادي العودة بذهني مجددًا إلى هذه المدينة البائسة. سأدمن كلّ العادات السّيئة وغير السّيئة التي من شأنها أن تُبعدني عنها، أريد أن أنساها مثلما نست إيزابيل وطنها ومدينتها وعائلتها.

أرفع رأسي، قليلاً، إلى الأعلى، وأنظر إلى سقف الغرفة، أتأمّل المصباح المتدليّ، الذي لم أغيّره منذ مدّة طويلة، أتفرّج في الشّقوق الصّغيرة على الزوايا الأربع، وأتخيّل ما يمكن أن يعيش فيها من نمل أو صراصير أو حشرات أخرى، فمنذ، على الأقل، عشرين عامًا، لم نرقّع شيئا في البيت، كنّا فقط نغيّر الطّلاء، من حين لآخر، خصوصا قبل شهر رمضان، أو نفتح نافذة في واحدة من الغرف، ونطمس أخرى، أو نغيّر موضع أثاث من مكان لآخر، لقد تصالحت مع البيت على الشّكل الذي بُني عليه، ومن كسلي، أنا وسليمان، اقتسمناه بفوضاه، بمعماره الأوّل، كان يحدث أن يقترح علينا أحدهم، إضافة غرفة، أو هدم حائط والجمع بين غرفتين، أو تغيير الواجهة، المطلّة على الشّارع، لكن الاقتراحات تذهب أدراج الرّيح، فمنذ البدء، كنا قرّرنا، في صمت، وبتواطئ غير مُعلن، العيش في هذا المنزل القديم كما هو، ولم نفكّر يوما في بيعه أو تأجيره أو مغادرته.

على خلاف إيزابيل إيبرهارت التي عاشت متنقّلة من بيت لبيت، مثل يربوع يتوجّس شرًّا، فقد بقيت كالقطّ وفيًّا للمكان الذي ارتبطت به أولى ذكرياتي في هذا البلد، فعلت ذلك لعجز منّي في التّفكير في التّغيير، لم يكن لي سبب حقيقي للبقاء في المكان نفسه، ليس محبّة في الجيران ولا تودّدًا لهم، فقد تغيّروا كثيرا، مرّ أناس مختلفون، بالقرب منّا، ثم رحلوا. كانت علاقتي طيّبة مع بعضهم،

وآخرون تخاصمت معهم. أذكّر الحاج العطوي حادّ الطّباع، الـــذي سكن بيتًا في طرف الحيّ، وحذّرني المرحوم الحاج مُحاد من طيشه، كان يشترك معه في القبيلة ذاتها ويعرف ماضيه العـــدواني، ووصـــل خلافي معه حدّ التّعارك بالأيدي، بسبب حقـــده العشـــائري علـــى سليمان وسخريته منه، وبسبب ابنه العشريني المتهوّر مُـــراد، الـــذي تعمّد يومًا أن يكتب على حائط بيتنا بصبغ أحمر:

«جوزيف الحرْكي (الخائن)».

أراد استفزازي، وربما كان والده من حرضه على تلك الحماقة، فأمسكت به، في الشّارع، وتدخّل عبثًا والده ليحميه منّي، وانتـــهت المشادّة الجسدية بيننا، أمام أعين الجيران، بدم ينزف من أنفه، وهـــو يردّد مبتعدًا عنّي:

– يا قوّاد فرنسا..! سأنتقم منك..!

بقيت هنا لأنه لم يكن لي مكان آخر أذهب إليه، لا عائلـــة لي في هذه المدينة المسعورة، ولا أصدقاء حقيقيين، كل شيء بنيته علـــى علاقتي مع سليمان، وهو أيضا حافظ طويلا على مسافة بينه وبـــين أهله وأقاربه وحصر حياته معي، فلا واحد من معارفه كـــان يـــأتي لزيارته، لا في المناسبات الدّينية ولا في أوقات الشّدائد، كنّا رأســـين مشدودين لبعضهما البعض في أربعة عقود، «رأسي ورأسه في شاشية واحدة» كما يقول المثل، «موسى واحدة تذبحنا» كما علّق الميلـــود قاتل علجية على علاقتنا، تقدّمنا فيها قليلا إلى الأمـــام ثم تراجعنـــا، فالخطر الأكبر يبدو أنه زال، وحزب العدالة، الذي توعّدني ومن مثلي من أجانب بسوء العاقبة، لن يصل إلى الكرسي، والبيت لن يـــؤمّم، ومشروعه السّياسي لن يتحقّق، لكن الوضع العام لم يعد ينبّئ بخـــير،

فالانتخابات أُلغيت، بعد مغادرة الرّئيس الأشيب لمنصبه، في استقالة استعراضية على التّلفزيون، أمام الشّعب، ونتائج الدّور الأوّل صارت بلا معنى والدّور الثّاني لن يُنظم، كلّ شيء عاد إلى نقطة الصّفر، ورجع إلى البلد، من أيام قليلة، الرّجل الموعود، الذي تحدّثوا عنه في الجريدة وفي الراديو والتلفزيون، جاء الرّجل الأسمر الأصلع من المغرب، على متن طائرة رئاسية، بجسد نحيف وربطة عنق سوداء، قدّموا له تمرًا وحليبًا أمام الكاميرا، وقالوا بأنه سيكون رئيسًا للبلد وسيرتّب فوضى الوطن ويُصالح بين ديّكة السياسة في العاصمة، وهو قال في نشرة الأخبار أن الحال سيكون أفضل، لكن الأخبار التي تصلّ كلّ يوم ليست تبشر بأمل، لقد قتلوا دركيا، من ثلاثة أيام، في مدينة ليست بعيدة من هنا، وحصلت اشتباكات عنيفة أمام المسجد الكبير، أمس، عقب صلاة العصر، لحسن الحظّ أنها لم تصل إلى مسجد الحيّ، تدخّلت الشّرطة وأطلقت النّار وقتلت شخصين، لست أعرف تحديدًا إلى أيّ من الطّرفين ينتميان: هل هم من أنصار «العدالة» أم من خصوم العدالة؟ ففي بضعة أيام، مات حوالي أربعين رجلا في البلد، بحسب كلام الجريدة، سالت دماء وارتفعت منشورات وبيانات وعاد أنصار حزب العدالة يُطالبون، بصوت خافت، بحقّهم في الانتخابات وفي الفوز بها، كل هذا يصلني فقط من أخبار على الورق ووشوشات في مقهى «شالون» أو «مقهى السّعادة»، وسليمان لا يتحدّث في السّياسة، وإن حصل ونطق تعليقًا على واقعة ما، يجترّ عبارته الشّهيرة:

- هذا ولا أكثر!

وقد يردف قائلاً:

- يا سيدي الجيلالي، أُلطف بنا!

هل من شيء آخر أسوأ يمكن له أن يحصل في هذا البلد؟ ربما سليمان يرى أشياءً لا أراها. صار أكثر صمتا مما سبق، يسمع أسئلتي له، ولا يجيب عليها، ولست أعرف شخصًا آخر أثق فيه وأسأله عن سوء فهمي لما يجري، كنت أعتقد أن الخطر قد زال، لكن الموت بات يحوم، وشبح الطّرد من البلد بات أرحم، لست أعرف أين يجب أن أذهب، هل أعود إلى الحاج لمنوّر، في الزّاوية الرّيحانية، وأشاوره في الرّأي أم أطلب رأي إمام المسجد الذي يدعو الله أن يهلك غير المسلمين؟ أم أغمض عينيّ وأواصل العيش على أرض متحرّكة؟

يبدو أن الأرحم لي هو أن أغادر، وأسحب سليمان من ترابه، بهدوء، قبل أن يشتدّ الأمر ويتعقّد الحال، على أن نعود لاحقًا إلى هذا البيت وإلى قطّتنا الولود لّما يهدأ الوضع قليلاً.

- يومًا ما ستُفرج الأمور. خاطبني سليمان.
- أكيد أنها ستفرج. لكن متى؟ لا أعرف. أجبته.

سأبحث على رقم تليفون سعيد، ابن المرحوم سي لخضر خطيبي، لأتواصل معه، فهو الشّخص الوحيد، الذي يُقيم في باريس، وأعرفه، لقد كنت صديقًا لوالده، سنوات الحرب التحريرية وبعدها، رافقته، في أيامه الأخيرة، قبل أن يغادرنا بسكتة قلبية في المستشفى العسكري، ثم يغادر ابنه سعيد المدينة، إلى الجزائر العاصمة، ومنها إلى فرنسا، بعدما قضى أيامًا في السّجن، بسبب مشاركته مع كاتب أمازيغي يُدعى مولود معمري في احتجاجات ضد النّظام، قبل حوالي عشر سنوات.

كنت أحمل سعيد بين ذراعي لما كان صبيًا، أشتري له حلـــوى ولعبًا وألاعبه، وهو اليوم يعمل صحافيًا. قرأت أنه أصدر كتـــابين، كتبت عنهما جريدة الحزب الشّيوعي، الأول عن صـــديقه مولـــود معمري، الذي مات، من ثلاث سنوات، في حادثة سير، وهو عائـــد من المغرب إلى الجزائر، وكان سعيد رافقه لبضع سنوات في الكتابـــة وفي النّضال، والكتاب الثّاني ينتقد فيه سياسة البلد، يتحدّث فيه عن بعض الوزراء السّابقين، الذين التقى عدداً منهم، وربما لـــو التقيتـــه ورويت له تفاصيل قصتي سيُساعدني، في نشـــر مخطـــوط إيزابيـــل إيبرهارت الضّائع. لكن، سأشترط عليه ذكر اسمي في الكتاب، على الغلاف أو في ظهر الكتاب، فقد حملت المخطـــوط الـــثّمين معـــي، لعقود، بحبّ كما تحمل أمّ جنينها، حصلت عليه مُقابـــل مروحـــة كهربائية، كان ثمنها غاليًا آنذاك، خبّأته في مكان لا يصل إليه أحد، وأعدت خطّ فصول غير واضحة منه، وربما أعرض عليه أن يُعنونه إن شاء: «قرب إيزابيل» أو أي عنوان آخر من اختياره، وســـأقدّم لـــه لوحيّ الأخيرتين غير المكتملتين، وربما ستعجبانه ويشتريهما منّـــي، وأترك له حرية دفع المبلغ الذي يريد، وأخبره بأنني رسمـــت ثـــلاث عشرة لوحة أخرى، دفنتها في حديقة البيت، بين الكرمـــة وشـــجرة اللّيمون، وأني كنت صديقًا للفنان عبد الهادي، وغير مقتنع بشـــهرة الفنّان إيتيان دينيه.

سأحاول أن أتحدّث إليه كصديق لا كابن صديق لي، فقد صار رجلا، وسمعت أنه تزوّج من فتاة فرنسية، ابنة رفيق كان يعمـــل في «شبكة جونسون» لدعم الثّورة التّحريرية، أنجب منها طفلا أسمـــاه لخضر، وهو أيضا ربما يعرف إيزابيل إيبرهارت، قد يكون قرأ لها، أو

قرأ عنها، وفهم أن لا طائل من بقاء الإنسان في بقعة تبصق أبناءهـــا ومحبيها وتتبوّل على ذكراهم.

لكن، أين سأجد رقم هاتفه؟

ربما سأطلبه من واحد من أبناء عمومته.

ألطّخ أصابعي بالألوان، أغطس إبهام يدي اليسرى في الصّبغ الأصفر، وأضحك، في داخلي، من نفسي. أتفقّد جسمي، أتحسّس كلّ جزء فيه، رأسي وكتفيّ وصدري وبطني، ثم أضحك فعلاً، بصمت مسموع، وأنظر لمرآة الخزانة لأتأكّد من أنني أنا هو جوزيف: جوزيف رينشار، ابن شارل وآن لور، أتأكّد من ملمح العجوز الذي صرته، أتلمّس التّجاعيد التي تقسم جبهتي نصفين: علويّ وسفليّ، والتي تتمدّد في وجهي، أتأكد من وجودي قبل أن أرحل من بيتي الذي رأف بتيهي ومللي وكآبتي وفرحي ونواياي السّيئة والحسنة أربعين عامًا، لقضاء عطلة بلاسبب، في ضاحية باريس البعيدة، عطلة وليس شيئًا آخر، كما وصفها سليمان.

- عطلة فقط. يهدأ الحال ونرجع.

أمرّر يدي اليسرى على رجولتي الهشّة المتبقيّة، أترك نقطة بالصّبغ الأصفر أسفل بطني، وألتفت إلى بعض الأوراق المترامية في طرف الغرفة، أفكر في أن أحمل البيت كلّه معي إلى فرنسا، أن أنقل كلّ أثاثي القديم والحميم معي، ثم أرثي حالي بفكرة أني سأعود إليه بعد شهرين أو ثلاثة، حينما تستقر الأوضاع قليلاً، وتهدأ الأنفس، وتصير الحياة هنا أكثر رحمة وأقلّ توحشًا. سأعود إلى بيتي، نعم سأعود، لأنّه لا خيار لي سوى العودة.

- يا جوزيف، هذي البلاد ما يعيش فيها غير طويل العمـــر.
قال لي مرّة الحاج مُحاد رحمة الله عليه.

أُعيد ترتيب مخطوط إيزابيل في حقيبتي البنيّة، مع أوسمتي الثلاثة وميدالية الفارّين، وبعض الأغراض السّخيفة، كمطفــأة السّـــجائر المطلية بماء الذّهب، عِقد العاج الذي اشتريته من تاجر زنجي، على أنّه واقٍ من العين ومن الحسد، وضعته على عنقي لأيّام ثم تخليت عنـــه، وأوراق خربشاتي. أنادي على سليمان، وأسمع «نعم!» منه، لا لشيء فقط لأطمئن من وجوده بقربـــي.

أتأمّل لوحة «نور العين وعبد الغرام» لإيتيان دينيه، التي ربمـــا سأُعيد يومًا ما رسم نسخة منها، لكن بشكل مختلف، وأترك كابـــل الهاتف موصولاً لأنني سأتّصل بزوينة، التي تركت لها نســخة مـــن مفتاح البيت، أغلق العدّاد الكهربائي وألقي نظرة أخيرة على المطبخ، أمسح بعض فتات الخبز الذي كان متناثرًا على طاولة الأكل، وأترك فوقها مبلغ ثلاثة آلاف دينار في ظرف، أعادها لي الحاج علي، بعـــد أكثر من سنة من الانتظار، وتغاضى عن الثلاثة آلاف الأخرى المتبقية من ديني عليه، مع رسالة قصيرة كتبتها لها في قصاصة:

«رجاء اعتنِ بنفسك زوينة، واعتنِ بالبيت. سأتّصـــل بـــك في أقرب فرصة. بارك الله فيك».

أخبّئ نسخة أخرى من مفتاح البيت أسفل سرير غرفة النّوم، ثم ألتحق بسليمان الذي كان يقف على الباب، مع حقيبتـــه وكيســـين بلاستيكيين ممتلئين أغراضًا. أغلق قفل الباب الخـــارجي مـــرتين، ثم أفتحه وأغلقه مرّة أخرى. أركب سيارة التاكسي البيضاء لتأخذنا إلى محطة المسافرين ومن هناك في سيارة نقل جماعي صـــفراء إلى مطـــار

الجزائر العاصمة، الذي يبعد بمسافة أربع ساعات، وأتذكّر، بعد دقائق أنني نسيت كتاب إيزابيل إيبرهارت «يوميات» في الخزانة، ونسيت غلق واحدة من النّافذتين المطلّتين على الشّارع بإحكام، ونسيت أنني لم أسق الكرمة ولا شجرة الليمون، وأني لم أشعل عود بخور قبل أن أخرج، تذكّرت أنني نسيت خاتم الفضّة، هدية أمي الوحيدة لي، على طاولة المطبخ، ونسيت أن أترك حليبًا كفاية للقطّة في صحن الألومنيوم. تذكّرت أنني نسيت كلّ هذا، وتحسّرت أنني لم أحمل معي لوحة مبروكة الدّرويشة، التي رسمها عبد الهادي، والتي تمنّيت أن أنقلها معي لتؤنسني في غربتي، لكن الطّريق كان يتمدّد أمامي والبيت يبتعد والرّجوع إليه باتت أكثر صعوبة مما أعتقد، وسليمان يُطمئني:

- ما تقلقش روحك يالعميرة.. سنعود لما تستقر الأمور.

سنعود! ولكن إلى أين سنعود؟ المتاهة اتسعت والممرّات ضاقت، والتّفكير في العودة صار أمرًا مُرهقًا، الوضع انقلب والتّاريخ انتقم منّا، تركنا البيت والشّمس والقطّة الولود، ولن أرى مجددًا ذلك الطّفل الأسمر الأشعث، الذي كان يأتي يطلب خبزًا يابسًا لغنم والده، ولا العجوز موشّمة الجبين، التي انتظرها هذه الأيام لتدقّ الباب وتطلب صدقة وتقرأ لي كفي، لكنها غابت، وسافرنا وحلقنا وهجرنا، وابتعدنا عن سنوات الأمل التي عشناها في الأربعين سنة الماضية.

كُتب عليّ التّيه كما كُتب على أنبياء من قبلي.

أربعون عامًا قضيتها في الجنوب، وسنة جديدة بدأت، الآن، تلوّح لي، بمرارة، من الشّمال.

وصلنا إلى الشّقة في الضّاحية الباريسية وليتنا لم نصل ولم نفكر فيها قط، لسعنا بردها وجفاؤها، نظّفناها، في الصّباح الأوّل من وصولنا، وضعنا فيها أغراضنا، تركناها مشتّتة، أعدنا ربط الشّقة بالكهرباء وبكابل الهاتف، بمساعدة حارس العمارة الأربعيني اللطيف، واقتسمنا فيها سريرًا ضيقًا، يُصدر ضجيجًا إثر أيّ حركة بسيطة. لم نأكل شيئًا يذكر في اليومين الأولين، لم نشعر بجوع أو ربما التّوتر تغلب على الجوع، وأنا لم أكتب شيئًا ولم أرسم، ثم جاءني، في اليوم الثّالث، صوت زوينة، في الهاتف، حين اتّصلت بها لأطمئنها وأطمئن عليها وعلى حال البيت في بوسعادة، ردّت عليّ وهي تبتلع دموعها:

- دخلوا للدّار من النّافذة وسرقوا كلّ شيء..

ماذا سرقوا؟.. سرقوا ذاكرتهم!

- ما خلاو والو!(لم يتركوا شيئًا!). لقد أبلغت الشّرطة..

أضافت.

قضى الأوغاد أربعين عامًا ينتظرون رحيلي، أنا وسليمان، ليسطوا على البيت، ويسرقون كلّ ما فيه: الثّلاجة والتلفاز وبعض الملابس والأثاث والآواني، لم يتركوا شيئًا.. ماذا فعلوا بالقطّة؟ وأولادها؟ وهل عثروا على اللوحات الثّلاثة عشرة المدفونة في الحديقة؟ هل أخرجوها من مدفنها؟ هل أعجبتهم أم لم تعجبهم!

زوينة لم تقل لي شيئًا عن اللوحات، وأنا لم أسألها. كان صوتها يصلني متقطعًا، باكيًا، والأكيد أن اللصوص لم يتركوا شيئا وراءهم، والكرمة وشجرة الليمون ماذا فعلوا بهما؟ أخذوا كل غرض يمكن لهم أن يبيعوه أو يقايضوه، سطا أولاد الحرام على بيت رجلين لم يروا منهما إلا خيرًا.

- الله يحرقهم في الدّنيا وفي الآخرة. علّق سليمان.

ثم راح يكرّر شتّائم وكلمات فظّة بعدما سمع بالخبر. مرّ زمان طويل لم أسمعه يسبّ أو ينطق كلمة خادشة. لحظتها، انفعل، وهو يجلس على الأريكة، سبّ المدينة وأهلها وتاريخها وكلّ شيء فيها. رفع سبابته أمامي وأضاف، وبصاق يخرج من بين شفتيه:

- والله ما نزيد نحط رجلي في ذيك البلد!

كلّما وثقت في تلك المدينة، التي أحببتها وغرتها عليها، خانتني. لكني لا أملك قدرة على ردّ فعل. أنا الآن بعيد عنها، وهي ازدادت نفورًا منّي.

محاربان قديمان لا شيء يمكن لهما فعله في أرذل العمر، فقط مشاهدة الأيام تمرّ أمام أعينهما بضجر، الوقوف في البالكونة، من حين لآخر، لتأمّل الفراغ، عدّ السّاعات والاستماع لخطوات المارّة في الخارج، وأبواق السّيارات، وسرد حكايات عن زمن تحوّل بسرعة ولم ينتبها إليه، فالراديو الذي اشتريته من سوق قريب، ينتظم كلّ صبيحة أحد، ووضعته فوق طاولة صغيرة، في صالون الشّقة، لا يبثّ في غالبية الوقت سوى أغانٍ لمغنين لا أعرفهم، وتردّد محطّة راديو البلد لا يصل، والأخبار تتوالى، في الضّفة التي هجرتها أو هجرتني، وأنا لا علم لي ماذا يحصل!

سعيد خطيبي وعدني بالاتصال بي، وزيارتي في البيت في شوازي لو روا، أو تحديد موعد للقاء بيننا، بمجرد عودته من إجازة في مراكش، لكنه لم يتّصل بعد، ولا أفكر في الاتصال به مجددًا، سليمان طلب منّي أن لا أعيد الكرّة، كي لا نظهر في صورة شخصين منهزمين.. لكننا، فعلاً شخصان مُنهزمان! هزمتنا أنانيتنا

وجُبننا وشهواتنا الصّبيانية، ومشاريعنا التي لم تتحقّق يومًا..

أظنّ أنّه عليّ أن أكمل لوحتيّ ليستقر بالي وأتخلص من كوابيسي وأجدّد دمي.

- أخدم لوحاتك وما تطيّحش قدرك. العربي ما فيهش الخير. خاطبني سليمان.

صرنا في البيت أشبه بجثتين حيّتين، تنتقلان بين غرفتين ضيقتين وصالون ومطبخ وحمّام، نجلس على طرف الحياة، ونعجز عن مدّ أيدينا لها، لسنا قادرين على التّأقلم مع حياتنا الجديدة، ولا قادرين على العودة إلى حياتنا السّابقة. فكّرت في غرس طماطم في البالكونة، أو زهر يُبرعم في الرّبيع القريب، لكني تخلّيت عن الفكرة، وقبلنا بالتّدحرج في مستنقع الذكريات، الإمساك بخيط ما فات من العمر، وتدوير كلام مضى، ننظر إلى وجهي بعضنا البعض، من حين لآخر، من دون ابتسامة أو عبوس، فقط نظرات خاطفة وتائهة، بعينين زائغتين، نتذكّر وجوهًا عرفناها ونكرّر كلمة واحدة طوال اليوم:

- يا حسراه!

النّوم لم يعد حليفي، الأرق وحده يلوّن ليلي، أتقلّب، مثل سليمان، في الفراش، عشرات المرّات، لأسمع ضجيج السّرير الخشبي، وأُحاول أن أغمض جفني بلا جدوى، أتخيّل سيناريوهات أفلام في رأسي، وقصصًا، لعلّها تُصالحني مع النّوم، لكن بلا نتيجة، أبتلع حبوبا منوّمة فلا تنفعني، لم أتعوّد على الحياة الفرنسية، التي غادرها شابًا، كما أني لم أتعوّد على الوقت، وبقيت أعيش بتوقيت المدينة التي انقلبت عليّ، بفارق ساعة، وأتحدّث مع سليمان بلغة حياتي السّابقة، بعربية ممزوجة بكلمات أمازيغية وأخرى فرنسية أو

تركية، أتكلّم في البيت بلغة، وفي الشّارع، عندما أخرج لشراء خضر أو خبز، أتحدّث لغة أخرى، أعيش بهويتين، بوجهين، الأول لفرنسي قروي قديم، خاض حربًا عالمية، والوجه الثّاني لجزائري دخيل، شارك في حرب تحريرية.

أرأف بصمت سليمان وعزلته، هو ظلّ وفيًا لعاداته البوسعادية، لم يكن يتحدّث كثيرًا، يلقي كلماته لي بإشارات، بحركات من يديه، وأفهم ما يُريد من دون أن يتكلّم، أنسحب تدريجيًا من مواجهته، في البيت الفرنسي الفاتر، كي لا أشعره بتضايق، لا أرسم إلاّ عندما يذهب للبالكونة ليطلّ على الحياة أو لغرفة النّوم ليدير ظهره لها، وأتظاهر بالقراءة أو الكتابة في حضوره، وأنا أستمع للراديو غير منصت لما يصدر منه، وهو يقترب مني بحذر، أنظر إليه، من حين لآخر، أحدق في ملامحه المتعبة، وأراقب دقّات قلبي المتسارعة، أشعر بنوبات ضيق تنفّس، مثلما كان يحصل مع أخي أوليفي في صغره، إحساسي يخبرني أني سأنهي حياتي هذه الأيام، لن أعيش حتّى الرّبيع، سينطفئ عمري في السّبعين، بسكتة قلبية، وإحساسي لا يخذلني عادة، سأرحل تمامًا مثلما رحل عنّا صديقي القديم الحاج لخضر، والد سعيد خطيبي، سأكتب الليلة وصية لسليمان، أتركها تحت الوسادة، أطلب منه أن يدفنني في مربع المسلمين، في مقبرة «بير لاشيز» الباريسية، على الأقل سأنام نومي الأخير بالقرب من لافونتان، كاتبي المفضّل قبل أن أكتشف إيزابيل إيبرهارت، فقد صارت مقبرة «سيدي بوجمعة»، في عين الصّفراء، حيث ترقد الرّحالة الملعونة، أبعد مما أتصوّر، ورغبتي في الدّفن بالقرب منها، وبالقرب من الكاتبة الشّابة صافية كتّو، صارت رغبة مستحيلة.

بدا لي سليمان اليوم هادئًا، مُتأمّلاً ومطمئنًا للوضع الجديد الذي وجدنا فيه أنفسنا.

- اللي فات مات. قال بصوت خافت.

سألني عن الطّقس في الأيام القادمة، والذي سيثلج بكلّ تأكيد، ثم نظر إليّ وأنا أجلس على الأريكة وسألني ماذا أكتب. فاجأني السّؤال، فعلاً ماذا أكتب؟ ثم لماذا أنا أكتب؟ لم أستطع أن أجيبه إجابة واحدة شافية، أخبرته أني كتبت وأكتب أشياءَ تتعلّق بحياتنا نحن الاثنين، في بوسعادة وفي الجزائر، من سنوات الحرب إلى اليوم، أكتب عن أشخاص عرفناهم وآخرين سمعنا عنهم و لم نلتقيهم.

- عن حياتي أنا أيضا؟ ما هو الشّيء المهم في حياتي؟ سألني.

لا شيء مهمّ في حياة رجل أُرغم على حربين، وتخلّى بجبن أو بشجاعة عن أهله وبلده، لكن هي مجرد حكايات وأحجيات ومايُشبه السّيرة كتبتها عن شخصين يتشابهان كثيرًا ويختلفان قليلاً، دوّنت حياتنا لأسمح لقلبي بأن يرتاح، بعد أيّام قليلة، وأموت بهدوء وسكينة ولا أمنح شخصًا آخر فرصة لتشويه سيرتين، أملي أن أكون كتبت ما يجب أن يُكتب وإن قصّرت في أمر ما فليعذرني القارئ، إن ذلك فقط لسهو منّي وليس عن قصد.

يبدو أن فكرة كتابة أشياء عنه أعجبت سليمان، اقترب منّي ليلقي نظرة خاطفة على أوراقي، سحبها بهدوء من حجري، تفحّصها بيديه،

قلبّها واقترح عليّ أن أقرأ له ما كتبت. راقتني فكرة أن أقرأ، لأوّل مرة، ما كتبت في الأسابيع الماضية، منذ بدأ خوفي من الطّرد والتّهجير من الجزائر يرتفع، فأنا لم يسبق لي أن أعدت قراءة ما كتبت. كنت فقط أكتب وأسوّد الورق من دون أن أراجع النصّ أو أُعدّل منه شيئًا.

قمت من مكاني، أحضرت كأسي شاي أخضر، من المطبخ، وجلست جنبه في الأريكة الرّمادية، أوقفت الراديو عن الضّجيج، وضعت الأوراق على حجري مجددًا، رتّبتها بحسب ترقيمها، وطلبت منه، قبل أن أبدأ، أن يوقفني عند كلّ مقطع لا يُعجبه، أن يُطلعني على رأيه، أن يتدخّل كلّما لزم الأمر، ويضيف من عنده أشياءَ تكون ربما وقعت سهوًا من الحكاية، وأن يُساعدني على إكمالها، وسرد كلّ الأشياء المهمّة وغير المهمّة التي مرّت في حياتنا ولم أنتبه إليها، أن نتمّ قصّة الأربعين عامًا التي جمعتنا، قبل أن يتوقّف قلبي عن النّبض أو يتّصل بي سعيد بن لخضر خطيبي كما وعدني، وأُسلّم له مخطوط إيزابيل إيبرهارت، وأقطع بعدها مباشرة علاقتي بالأدب، أخبرته أن مخطوط الرّحالة الملعونة ملك له أيضاً، أن يُسلمه لابن لخضر بنفسه لو زارني عزرائيل هذا الأسبوع.

- الأعمار بيد الله. حاول مواساتي.
- المهم أن تسلّمه المخطوط وتقرأ وصيتي قبل دفني. أجبت بنبرة صارمة.

ثم شرعت في قراءة ما كتبت بفرنسية هادئة وبصوت مبحوح، حاولت أن يكون صوتًا مُشابهًا لصوت المذيعين في الراديو:

«سأرسم لوحتين أخيرتين ليوميّات إيزابيل إيبرهارت، وأردمهما في حديقة البيت، بين الكرمة وشجرة اللّيمون، وسأفعل الشّيء نفسه

مع اللّوحات الثلاثة عشرة الأخرى، وأبتلـــع، كالعـــادة، كلمـــات سليمان الصّاخبة ولعناته، ولن أردّ على لومه لي بأنها فعلـــة مُخلّـــة بأخلاق الفنّ، فقريبًا سيدرك أني عشت لأرسم وأدفن فنّي، وأنّ ثقتي كبيرة في أناس يأتون من بعدي، يحفرون عميقًا بحثا عـــن لوحـــاتي، ليقيّموها بأنفسهم ويحكموا عليها، قد يرجمونني بتهمة الاستشـــراق، ويبصقوا عليّ، ويتبوّلوا على رسوماتي وعلـــى اسمـــي، ويتـــهمونني بالعمالة والفجور، وربما سيحبّونني، يحـــدّقون طـــويلا في لوحـــاتي، يُشيدون بها، ثم يُعلّقونها حيثما شاءوا، على الحيطـــان العاريـــة أو في بيوت الله المعبّقة بالبخور، أو يعرضوها في السّوق الأسبوعية صـــباح كل جمعة، ويأكلون من ثمنها خبزًا حلالاً»..

أربعون عاماً في انتظار إيزابيل

سعيد خطيبي

▪ كاتب من الجزائر.

سأرسم لوحتين أخيرتين ليوميّات إيزابيل إيبرهارت، أردمهما في حديقة البيت، بين الكرمة وشجرة اللّيمون، وسأفعل الشّيء نفسه مع اللّوحات الثلاث عشرة الأخرى، وابتلع، كالعادة، كلمات سليمان الصّاخبة ولعناته. لن أردّ على لومه لي بأنها فعلة مُخلّة بأخلاق الفنّ، فقريبًا، سيُدرك أني عشت لأرسم وأدفن فنّي، وأن ثقتي كبيرة في أناس يأتون من بعدي، يحفرون عميقًا؛ بحثًا عن لوحاتي، ليقيّموها بأنفسهم ويحكموا عليها: قد يرجمونني بتهمة الاستشراق، يبصقون عليّ، ويتبوّلون على رسوماتي وعلى اسمي، ويتّهمونني بالعمالة والفجور، وربّما سيحبّونني، يحدّقون طويلاً في أعمالي، يُشيدون بها، ثم يُعلّقونها حيثما شاؤوا: على الحيطان العارية، أو في بيوت الله المعبّقة بالبخور، أو يعرضونها في السّوق الأسبوعية صباح كلّ جمعة، يأكلون من ثمنها القليل خبزًا حلالاً، وقد يجعلون من بيتي هذا، الواقع بين مسجد ومقبرة لشهداء الثّورة، متحفًا أو مزارًا أو قبّة للزّاهدين، ويكتبون سيرة لي غير سيرتي الحقيقية.

مكتبة نوميديا 95

Telegram@ Numidia_Library

ISBN: 978-614-02-1459-0

منشورات الاختلاف
Editions El-Ikhtilef
editions.elikhtilef@gmail.com

منشورات ضفاف
Editions Difaf
editions.difaf@gmail.com

جميع كتبنا متوفرة في موقع نيل وفرات.كوم www.neelwafurat.com - www.nwf.com